سؤالان في القضاء والقدر

لشيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

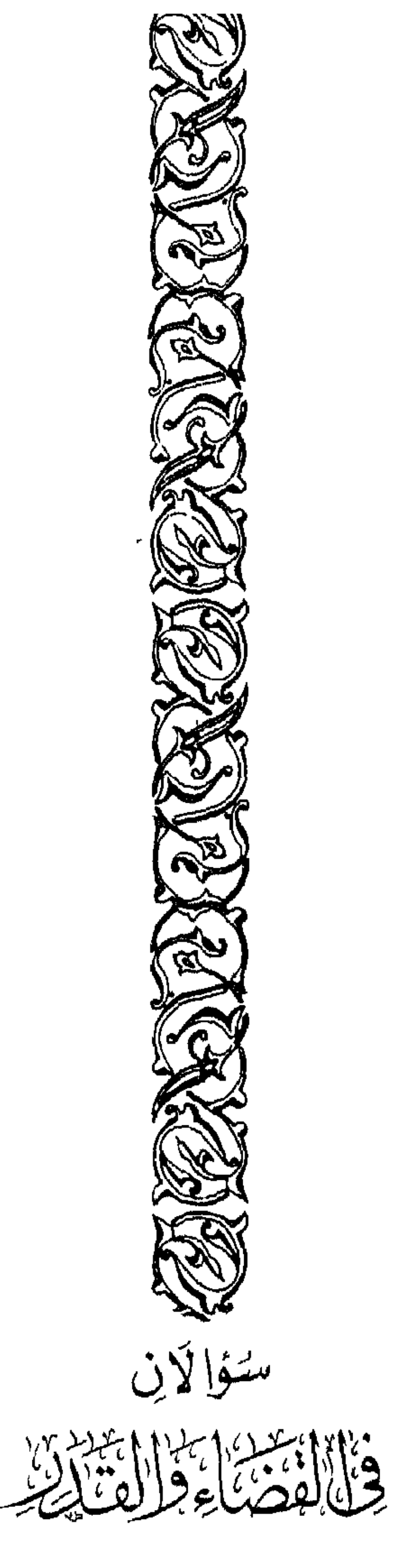
"٦٦١ - ٧٢٨ هـ"

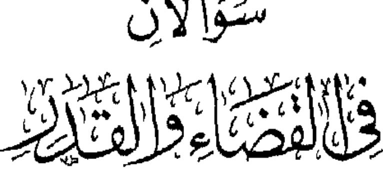
أعده وخرج أحاديثه وعلق عليه

أبو المجد حرك

الدار المصرية اللبنانية






سؤالان
في القضاء والقدر



الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م



الدار المصرية اللبنانية طباعة • نشر • توزيع
١٦ شارع عبد الخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ فاكس ٣٩٠٩٦١٨ - برقيا دار شادو - ص ب ٢٠٢٢ - القاهرة
AL DAR AL MASRIAH AL LUBNANIAH PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION
16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O. Box 2022 Cairo Egypt PHONE 3936743 3923525 FAX 3909618 CABLE DARSHADO

سؤالان

في القضاء والقدر

لشيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

"٦٦١ - ٧٢٨ هـ"

أعده وخرج أحاديثه وعلق عليه

أبو المجد حرك

الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد . .

فإن الاحتجاج بالقضاء والقدر مشكلة جدلية قديمة ، استحوذت عقودًا طويلة على اهتمام علماء المسلمين ، وما زالت حتى الآن مثار جدال وحيرة لأهل الفساد من العصاة المعاندين ، والكثيرين من الشباب الضائع الذى ينحصر جل علمه بالدين فى قشور لا تغنى ولا تسمن ، وياليته مع ذلك يحسن العلم بها .

والاحتجاج بالقضاء والقدر لا تجده إلا على أفواه العصاة وأهل الذنوب ؛ يقولون : إذا كان الله قد كتب علينا اقتراف المعاصى فَلِمَ يعذبنا ويدخلنا النار ؟ أو إننا إنْ كنا من أهل النار فى سابق علم الله فلن تفيدنا الطاعة ، وإن كنا من أهل الجنة فلن تضرنا المعصية . . ولا تجد مثل هذه الأقوال الفاسدة على ألسنة أهل الطاعة الذين يعلمون أن دخولهم الجنة – إن شاء الله – إنما يكون – كما أخبر سبحانه – ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (1) ، وكذلك دخول أهل المعاصى والمشركين النار ، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ (2) صدق الله العظيم .

ولقد كان لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية – رحمه الله – اليد الطولى فى الرد على القدريين وتفنيد آرائهم ، وذلك بالحجة الدامغة والبرهان الساطع ، وبأسلوبه الرائق البليغ .

ونحن نضع بين يدى القارئ الكريم الآن بعضًا من أقواله السديدة الجامعة فى هذا الموضوع ، من خلال إجابته المستفيضة عن السؤالين المختارين هنا .

---

(1) سورة السجدة : الآية ١٧

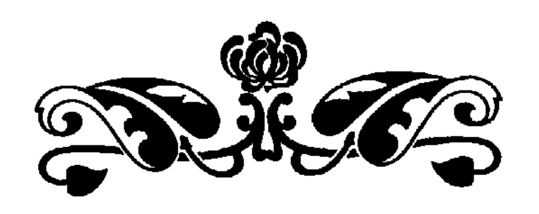
(2) سورة يونس . الآية ٤٤ .

وكعادتنا مع مختاراتنا من تراث شيخ الإسلام فقد قمنا بتوفيق الله وعونه بالإحالة إلى تخريجات كلِ الأحاديث الواردة فى كلامه ، كما قدمنا تراجم مختصرة لجمهرة الأعلام الوارد ذكرهم فى السياق ، وأوضحنا مواضع الآيات المذكورة فى القرآن الكريم ، وصوبنا بعض ما صادفنا من الأخطاء فى النقل ، ثم ذيلنا بعد ذلك بفهارس هجائية للأحاديث ولتراجم الأعلام .

نسأل الله أن ينفع بهذا العمل ، وأن يقبله منا ويجعله فى صحائف أعمالنا الطيبة يوم العرض عليه ، وما توفيقى إلا بالله ، والحمد لله رب العالمين .

أبو المجد حرك

* * *







السؤال الأول

(٢٦٢ - ٢٧١ /٨)

سُئل شيخ الإسلام ، مفتى الأنام ، بقية السلف ، أبو العباس، أحمد بن تيمية - رحمه الله - عن أقوام يحتجون بسابق القدر ويقولون : إنه قد مضى الأمر ، والشقى شقى ، والسعيد سعيد ، محتجين بقول الله سبحانه : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [1] قائلين بأن الله قدر الخير والشر ، والزِّنى مكتوب علينا ، ومالنا فى الأفعال قدرة ، وإنما القدرة لله ، ونحن نتوقى ما كتب لنا ، وأن آدم ما عصى ، وأن من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة ، محتجين بقوله ﷺ : « من قال :

(١) الآية ١٠١ من سورة الأنبياء .

لا إلٰه إلا الله دخل الجنة ، وإنْ زَنَى وإن سرق »[2] فبينوا لنا فساد قول هذه الطائفة بالبراهين القاطعة ؟

فأجاب – رحمه الله تعالى – :

الحمد لله رب العالمين : هؤلاء القوم إذا أصروا على هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارى ، فإن اليهود والنصارى يؤمنون بالأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، لكن حرفوا وبدلوا وآمنوا ببعض وكفروا ببعض . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

(٢) أخرجه البخارى فى كتب : (الجنائز) ١ ، و(بدء الخلق) ٦ ، و(اللباس) ٢٤ ، و(الاستئذان) ٣٠ ، و(الرقاق) ١٣و ١٤ ، و(التوحيد) ٣٣ ، وهو فى (الفتح) برقم ١٢٣٧ ص ٣ /١٣٢ بأرقام ١٤٠٨و ٢٣٨٨و ٣٢٢٢و ٥٨٢٧و ٦٢٦٨و ٦٤٤٣و ٧٤٨٧ . ورواه مسلم فى كتاب الإيمان (١٥٣و ١٥٤) ، والزكاة (٣٢و ٣٣) . ورواه الترمذى فى كتاب الإيمان (٣ /٢٦٩) ، وأحمد (٥ /١٥٢) : كلهم عن أبى ذر . وأورده الألبانى فى (سلسلة الأحاديث الصحيحة) برقم ٨٢٦ ص ٣٩٩ .

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٣) فإذا كان من آمن ببعض وكفر ببعض فهو كافر حقًّا ، فكيف بمن كفر بالجميع ، ولم يقر بأمر الله ونهيه ووعده ووعيده ، بل ترك ذلك محتجاً بالقَدر ، فهو أكفر ممن آمن ببعض وكفر ببعض .

وقول هؤلاء يظهر بطلانه من وجوه :

أحدها : أن الواحد من هؤلاء إما أن يرى القدر حجة للعبد ، وإما ألا يراه حجة للعبد ، فإن كان القدر حجة للعبد ، فهو حجة لجميع الناس ، فإنهم كلهم مشتركون فى القدر ، وحينئذ فيلزم ألا ينكر على من يظلمه ويشتمه ويأخذ ماله ويفسد حريمه ويضرب عنقه ويهلك الحرث والنسل ، وهؤلاء جميعهم كذابون متناقضون ، فإن أحدهم لا يزال يذم هذا ، ويبغض هذا ، ويخالف هذا ، حتى إن الذى ينكر عليهم يبغضونه ويعادونه وينكرون عليه ، فإن كان القدر حجة لمن

(٣) الآيات ١٥٠ – ١٥٢ من سورة النساء .

فعل المحرمات وترك الواجبات لزمهم ألا يذموا أحدًا ، ولا يبغضوا أحدًا ، ولا يقولوا فى أحد : إنه ظالم ، ولو فعل ما فعل . ومعلوم أن هذا لا يمكن أحدًا فعلُه ، ولو فعل الناس هذا لهلك العالم ، فتبين أن قولهم فاسد فى العقل ، كما أنه كفر فى الشرع ، وأنهم كذابون مفترون فى قولهم : إن القدر حجة للعبد .

(**الوجه الثانى**) : أن هذا يلزم منه أن يكون إبليس ، وفرعون ، وقوم نوح ، وعاد وكل مَنْ أهلكه الله بذنوبه - معذورًا ، وهذا من الكفر الذى اتفق عليه أرباب الملل .

(**الوجه الثالث**) : أن هذا يلزم منه ألا يفرق بين أولياء الله وأعداء الله ، ولا بين المؤمنين والكفار ، ولا أهل الجنة وأهل النار . وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(٤) الآيات ١٩ - ٢٢ من سورة فاطر .

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [٥] وقال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [٦].

وذلك أن هؤلاء جميعهم سبقت لهم عند الله السوابق ، وكتب الله مقاديرهم قبل أن يخلقهم ، وهم مع هذا قد انقسموا إلى سعيد بالإيمان والعمل الصالح ، وإلى شقى بالكفر والفسق والعصيان ، فعلم بذلك أن القضاء والقدر ليس بحجة لأحد على معاصى الله .

(**الوجه الرابع**) : أن القدر نؤمن به ولا نحتج به ، فمن احتج بالقدر فحجته داحضة ، ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول ، ولو كان الاحتجاج مقبولًا لقبل من إبليس وغيره من العصاة ، ولو كان القدر حجة للعباد لم يُعَذَّبْ أحدُ من الخلق ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولو كان القدر حجة لم تُقْطَع يد سارق ، ولا قُتِلَ قاتل ، ولا أُقِيمَ حد على ذى جريمة ، ولا جُوهِدَ فى سبيل الله ، ولا أُمِرَ بالمعروف ، ولا نُهِىَ عن المنكر .

---

(٥) الآية ٢٨ من سورة ص .

(٦) الآية ٢١ من سورةالجاثية .

(**الوجه الخامس**) : أن النبى ﷺ سُئِلَ عن هذا فقال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ، ومقعده من النار » . فقيل : يارسول الله ، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ قال : « لا . اعملوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لَهُ » [7] رواه البخارى ومسلم [8] وفى حديث آخر فى الصحيح « أنه قيل : يا رسول الله ، أرأيت ما يعمل الناس وفيه يكدحون - أفيما جَفَّتْ به الأقلام وطُوِيَتْ به الصُّحف أم فيما يستأنفون مما جاءهم به ؟ - أو كما قيل - فقال : بل فيما جفت به الأقلام ، وطويت به الصحف ، فقيل ففيم العمل ؟ فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له » [9]

---

(٧) رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنن الأربعة عن علىٍّ ، وهو هنا بتصرف بسيط فى الألفاظ . انظر نص الحديث فى (فتح البارى) كتاب القدر ٦٦٠٥ ص ١١ /٥٠٣ ، و(صحيح مسلم) كتاب القدر ٦ ص ٨ /٦ . . والحديث فى (صحيح الجامع الصغير) للألبانى برقم ٥٧٩٤ ص ٢ /١٠٠٩ ، وفى (مشكاة المصابيح) للتبريزى بتحقيق الألبانى رقم ٨٥ص ١ /٣١ ، وفى (كنز العمال) برقمى ٥٨٠ ص ١ /١٢٢و ١٥٥٥ ص ١ /٣٤٣ ، وفى (مختصر صحيح مسلم) للمندرى بتحقيق الألبانى ، رقم ١٨٤٤ ص ٤٨٧ .

(٨) ستأتى الترجمة .

(٩) رواه الشيخان من حديث جابر بن عبد الله ، وعند مسلم أن السائل كان سراقة بن مالك بن جعشم ، انظر (كتاب القدر) حديث رقم ٨ =

(**الوجه السادس**) : ان يُقال : إن الله علم الأمور وكتبها على ما هى عليه ، فهو سبحانه قد كتب أن فلانًا يؤمن ويعمل صالحًا فيدخل الجنة ، وفلانًا يعصى ويفسق فيدخل النار . كما علم وكتب أن فلانًا يتزوج امرأة ويطؤها فيأتيه ولد ، وأن فلانًا يأكل ويشرب فيشبع ويروى ، وأن فلانًا يبذر البذر فينبت الزرع . فمن قال : إن كنت من أهل الجنة فأنا أدخلها بلا عمل صالح ، كان قوله قولًا باطلًا متناقضًا ؛ لأنه علم أنه يدخل الجنة بعمله الصالح ، فلو دخلها بلا عمل كان مناقضًا لما علمه الله وقدره .

ومثال ذلك من يقول : أنا لا أطأ امرأة ، فإن كان قد قضى الله لى بولد فهو يولد ، فهذا جاهل ، فإن الله إذا قضى بالولد قضى أن أباه يطأ امرأة فتحبل فتلد ، وأما الولد بلا حبل ولا وَطْءٍ فإن الله لم يقدره ولم يكتبه – كذلك الجنة إنَّمَا أعدها الله للمؤمنين ، فمن ظن أنه يدخل الجنة بلا إيمان

- ص ٨ /٨ ، وأخرجه ابن ماجه من حديث سراقة نفسه ، والترمذى من حديث ابن عمر ، وغيرهم . وهو فى (صحيح البخارى) من حديث عمران بن الحصين ، انظر (فتح البارى) كتاب القدر ، حديث رقم ٦٥٩٦ ص ١١ /٤٩٩ .

كان ظنه باطلًا ، وإذا اعتقد أن الأعمال التى أمر الله بها لا يحتاج إليها ، ولا فرق بين أن يعملها أو لا يعملها كان كافرًا ، والله قد حَرَّمَ الجنة على الكافرين ، فهذا الاعتقاد يناقض الإيمان الذى لا يدخل صاحبه النار .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (١٠) فمن سبقت له من الله الحسنى : فلابد ان يصير مؤمنًا تقيًا ، فمن لم يكن من المؤمنين لم يسبق له من الله الحسنى ، ولكن إذا سبقت للعبد من الله سابقة استعمله بالعمل الذى يصل به إلى تلك السابقة ، كمن سبق له من الله أن يُولَد له ولد ، فلابد أن يطأ امرأة يحبلها ، فإن الله سبحانه قَدَّرَ الأسباب والمسببات ، فسبق منه هذا وهذا ، فمن ظن أن أحدًا سبق له من الله الحسنى بلا سبب فقد ضل ، بل هو سبحانه مُيَسِّرُ الأسباب والمسببات ، وهو قَدْ قَدَّرَ فيما مضى هذا وهذا .

---

(١٠) الآية ١٠١ من سورة الأنبياء

فصل

وأما قول القائل : ما لنا فى جميع أفعالنا قُدْرة فقد كذب ، فإن الله سبحانه فرق بين المستطيع القادر وغير المستطيع ، فقال : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (١١) وقال : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (١٢) وقال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ (١٣) والله قد أثبت للعبد مشيئة وفعلا . كما قال تعالى :﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٤) وقال :﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٥) لكن الله سبحانه خالقه وخالق كل ما فيه من قدرة ومشيئة

---

(١١) جزء من الآية ١٦ من سورة التغابن .

(١٢) جزء من الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

(١٣) جزء من الآية ٥٤ من سورة الروم .

(١٤) الآيتان ٢٨و ٢٩ من سورة التكوير .

(١٥) جزء من الآية ١٧ من سورة السجدة ، ومن الآية ١٤ من سورة الأحقاف ، والآية ٢٤ من سورة الواقعة ، وهذا المعنى متكرر فى عدة سور فى القرآن الكريم .

وعمل ، فإنه لا ربَّ غيره ، ولا إلٰه سواه ، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه .

فصل

وأما قول القائل : الزِّنَى وغيره من المعاصي مكتوب علينا ، فهو كلام صحيح ، لكن هذا لا ينفعه الاحتجاج به ، فإن الله كتب أفعال العباد خيرها وشرها ، وكتب ما يصيرون إليه من الشقاوة والسعادة ، وجعل الأعمال سببًا للثواب والعقاب ، وكتب ذلك ، كما كتب الأمراض وجعلها سببًا للموت ، وكما كتب أكل السم وجعله سببًا للمرض والموت ، فمن أكل السم فإنه يمرض أو يموت . والله قدر وكتب هذا وهذا ، وكذلك من فعل ما نهى عنه من الكفر والفسق والعصيان فإنه يعمل ما كتب عليه ، وهو مستحق لما كتبه الله من الجزاء لمن عمل ذلك .

وحجة هؤلاء بالقدر على المعاصي من جنس حجة المشركين ، الذين قال الله عنهم : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا

مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (١٦)

وقال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ (١٧) قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٨) .

فصل

ومن قال : إن آدم ما عصى فهو مكذب للقرآن ، ويُستَتَابُ ، فإن تاب وإلا قتل ، فإنَّ الله قال : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ (١٩) والمعصية : هى مخالفة الأمر الشرعى ، فمن خالف أمر الله الذى أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه فقد عصى ، وإنْ كان داخلًا فيما قَدَّرَهُ الله وقضاه ،

(١٦) جزء من الآية ٣٥ من سورة النحل .

(١٧) جزء من الآية ١٤٨ من سورة الأنعام .

(١٨) تمام الآية السابقة نفسها (١٤٨) والآية ١٤٩ من سورة الأنعام .

(١٩) جزء من الآية ١٢١ من سورة طه .

وهؤلاء ظنوا أن المعصية هى الخروج عن قدر الله ، وهذا لا يمكن ، فإن أحدًا من المخلوقات لا يخرج عن قَدَرِ الله ، فإن لم تكن المعصية إلا هذا فلا يكون إبليس ، وفرعون ، وقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وجميع الكفار - عصاة أيضًا ؛ لأنهم داخلون فى قَدَرِ الله ، ثم قائلُ هذا يُضْرَبُ ويُهَان ، وإذا تظلم ممن فعل هذا به قيل له : هذا الذى فعل هذا ليس بعاصٍ ، فإنه داخل فى قَدَر الله كسائر الخلق ، وقائل هذا القول متناقض لا يثبت على حال .

فصل

وأما قول القائل : من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة ، واحتجاجه بالحديث المذكور .

فيقال له : لا ريب أن الكتاب والسنة فيهما وعد ووعيد ، وقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (٢٠)
وقال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم

(٢٠) الآية ١٠ من سورة النساء .

بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (٢١)

ومثل هذا كثير فى الكتاب والسنة ، والعبد عليه أن يصدق بهذا وبهذا ، لا يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، فهؤلاء المشركون أرادوا أن يُصَدِّقُوا بالوعد ، ويُكَذِّبُوا بالوعيد .

والحرورية والمعتزلة أرادوا أن يصدقوا بالوعيد دون الوعد ، وكلاهما أخطأ ، والذى عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بالوعد والوعيد ، فكما أن ما تَوَعَّدَ الله به العبد من العقاب ، قد بين سبحانه أنه بشروط : بألا يتوب ، فإن تاب تاب الله عليه . وبألا يكون له حسنات تمحو ذنوبه ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وبألا يشاء الله أن يغفر له :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (٢٢) فهكذا الوعد له تفسير وبيان . فمن قال

---

(٢١) الآيتان ٢٩و ٣٠ من سورة النساء .

(٢٢) جزء من الآية ٤٨ والآية ١١٦ من سورة النساء .

بلسانه : لا إله إلا الله ، وكذب الرسول فهو كافر باتفاق المسلمين ، وكذلك مَنْ جحد شيئًا مما أنزل الله .

فلابد من الإيمان بكل ما جاء به الرسول ، ثم إن كان من أهل الكبائر فأمره إلى الله ، إنْ شاء عذبه ، وإنْ شاء غفر له ، فإن ارتد عن الإسلام ومات مرتدًا كان فى النار ، فالسيئات تحبطها التوبة ، والحسنات تحبطها الردة ، ومن كان له حسنات وسيئات فإن الله لا يظلمه ، بل من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره . والله تعالى قد يتفضل عليه ، ويحسن إليه بمغفرته ورحمته .

ومن مات على الإيمان فإنه لا يخلد فى النار ، فكل من الزانى والسارق لا يخلد فى النار ، بل لابد أن يدخل الجنة ، فإن النار يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وهؤلاء المسئول عنهم يسمون : القدرية المباحية المشركين ، وقد جاء فى ذمهم من الآثار ما يضيق عنه هذا المكان ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *



السؤال الثانى

(٨/ ٢٩٦ - ٢٧٢)

سُئل شيخ الإسلام ، قَدَّسَ الله روحه ، عن قوم قد خُصُّوا بالسعادة ، وقوم قد خصوا بالشقاوة ، والسعيد لا يشقى ، والشقى لا يسعد ، وفى الأعمال لا تراد لذاتها ، بل لجلب السعادة ، ودفع الشقاوة ، وقد سبقنا وجود الأعمال ، فلا وجه لإتعاب النفس فى عمل ، ولا كفها عن ملذوذ ، فإن المكتوب فى القدم واقع لا محالة . بينوا ذلك .

فأجاب - رحمه الله :

الحمد لله . .

هذه (المسألة) قد أجاب فيها رسول الله ﷺ فى غير حديث ، ففى الصحيحين عن عمران بن حصين [٢٣] قال : « قيل يا رسول الله ، أَعَلِمَ أهل الجنة مَنْ أهل النار ؟ قال : نعم . قيل : ففيم يعمل العاملون ؟ قال : كُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خلق له » [٢٤] وفى رواية البخارى [٢٥] « قلت : يا رسول الله ،

---

(٢٣) أبو نجيد الخزاعى : عمران بن حصين بن عبيد ، من علماء الصحابة ، أسلم عام خيبر ، وأرسله عمر إلى البصرة ليفقه أهلها ، وولاه زياد قضاءها ، له فى كتب الحديث ١٣٠ حديثًا ، وتوفى بالبصرة سنة (٥٢هـ /٦٧٢م) . [انظر ترجمته فى : تهذيب التهذيب ٨ /١٢٥ ، وصفة الصفوة ١ /٢٨٣ ، وطبقات ابن سعد : ٧ /٤ ، وتذكرة الحفاظ ١ /٤٢٨ ، والأعلام للزركلى ص ٥ /٧٠] .

(٢٤) انظر (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) : كتاب القدر ، حديث رقم ٦٥٩٦ ص ١١ /٤٩٩ .

(٢٥) هو أبو عبد الله : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخارى ، حبر الإسلام ، حافظ من أئمة أهل الحديث ، صاحب (الجامع الصحيح) من أحاديث رسول الله ﷺ ، التى انتقاها البخارى من ٦٠٠ ألف حديث سمعها . ولد فى بخارى (١٩٤هـ /٨١٠م) ، وتوفى فى إحدى قرى سمرقند (٢٥٦هـ /٨٧٠م) . [انظر ترجمته فى : تذكرة الحفاظ ٢ /١٢٢ ، وتهذيب التهذيب ٩ /٤٧ ، والوفيات ١ /٤٥٥ ، وطبقات الحنابلة ١ /٢٧١ -٢٧٩ ، وتاريخ بغداد ٢ /٤ -٣٦ والأعلام للزركلى ٦ /٣٤] .

كل يعمل لما خلق له أو لما يُسِّرَ له » رواه مسلم [٢٦] فى صحيحه عن أبى الأسود الدؤلى [٢٧] قال : قال لى عمران بن حصين : أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، أشىء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقلت : بل شىء قضى عليهم ومضى عليهم ، قال : فقال : أفلا يكون ظلمًا ؟ قال : ففزعت من ذلك فزعًا شديدًا . وقلت : كل شىء خلق الله وملك يده فلا يُسْأَلُ

---

(٢٦) الإمام الحافظ أبو الحسين : مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى ، من أئمة الحديث ، ولد فى نيسابور (٢٠٤هـ /٨٢٠م) وتوفى فيها (٢٦١هـ /٨٧٥م) ، من أشهر مصنفاته (صحيح مسلم) به ١٢٠٠٠ حديث كتبها فى خمس عشرة سنة . [انظر ترجمته فى : تذكرة الحفاظ ٢ /١٥٠ ، وتهذيب التهذيب ١٠ /١٢٦ ، وابن خلكان ٢ /٩١ ، والبداية والنهاية ١١ /٣٣ ، وطبقات الحنابلة ١ /٣٣٧و الأعلام للزركلى ٧ /٢٢١] .

(٢٧) هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل : العالم الأمير الفارس الشاعر الفقيه ، واضع علم النحو ، وأول من نقط المصحف ، ولد بعد الهجرة بعام (٦٠٥م) وسكن البصرة فى خلافة عمر ، وولاه علىٌّ إمارتها ، ولما قُتل علىّ أكرمه معاوية كذلك ، ومات بالبصرة سنة ٦٩هـ (٦٨٨م) . [انظر فى ترجمته : الإصابة ٤٣٢٢ ، ووفيات الأعيان ١ /٢٤٠ ، وصبح الأعشى ٣ /١٦١ ، و الأعلام للزركلى ص ٣ /٢٣٦] .

عما يفعل وهم يُسألون . فقال لى : يرحمك الله إنى لم أرد بما سألتك إلا لأحرز عقلك [٢٨] إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ ، فقالا : يا رسول الله ، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، أشىء قُضِىَ عليهم ومضى فيهم من قَدَرٍ سبق ، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقال : لا ، بل شىء قضى عليهم ، ومضى فيهم . وتصديق ذلك فى كتاب الله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [٢٩] [٣٠] وروى مسلم فى صحيحه عن زهير [٣١] عن أبى الزبير [٣٢] عن جابر بن

---

(٢٨) لأحرز عقلك : قال النووى : أى لإمتحن عقلك وفهمك ومعرفتك ، والله أعلم .

(٢٩) الآيتان ٧و ٨ من سورة الشمس .

(٣٠) الحديث رواه مسلم فى كتاب (القدر) باب (كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته) ج١٠ ص ٩ /٨ . . وقد راجعت الحديث فصوبت ما كان به هنا من أخطاء فى النقل .

(٣١) هو أبو خيثمة : زهير بن حرب بن شداد النسائى البغدادى : محدث . فى عصره ، ولد فى (نسا) سنة (١٦٠هـ /٧٧٧م) وتوفى فى بغداد ٢٣٤هـ /٨٤٩م) . [انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد ٨ /٤٨٢ ، وشذرات الذهب ٢ /٨٠ ، وتذكرة الحفاظ ٢ /٢٢ ، والرسالة المستطرفة ٤٢ والأعلام للزركلى ص ٣ /٥١] .

(٣٢) أبو الزبير : محمد بن مسلم ، الأسدى بالولاء ، عالم بالحديث من أهل =

عبد الله [٣٣] قال : جاء سراقة بن مالك بن جعشم [٣٤] فقال : « يا رسول الله ، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ، فيم العمل اليوم ؟ أفيما جَفَّتْ به الأقلام وجرت المقادير أم فيما يستقبل ؟ قال : لا ، بل فيما جفت به الأقلام وجرت المقادير ، قال : ففيم العمل ؟ قال زهير : ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه فسألت : عما قال ، فقال : اعملوا فكلّ

= مكة ، اختلف المحدثون فى توثيقه ، توفى سنة (١٢٦هـ /٧٤٣م) . [انظر فى ترجمته : العقد الثمين (٢ /٣٥٤) ، وترجمة الأصبهانى فى الأعلام ٤ /٢٦٤ والأعلام للزركلى ص ٧ /٩٧] .

(٣٣) هو جابربن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجى الأنصارى السلمى : من الصحابة الغزاة ، غزا تسع عشرة غزوة ، ومن أفقههم بحديث رسول الله ﷺ ، روى له البخارى ومسلم وغيرهما ١٥٤٠ حديثًا . ولد سنة (١٦ق . هـ . /٦٠٧م) وتوفى سنة (٧٨هـ /٦٩٧م) . [انظر ترجمته فى : الإصابة ١ /٢١٣ ، وتهذيب الأسماء ١ /١٤٢ ، وذيل المذيل ٢٢ والأعلام للزركلى ص ٢ /١٠٤] .

(٣٤) هو أبو سفيان : سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى الكنانى : من الصحابة الشعراء ، أخرجه أبو سفيان ليقتفى أثر رسول الله ، ﷺ يوم الهجرة ،أسلم بعد غزوة الطائف سنة (٨هـ) وتوفى سنة (٢٤هـ /٦٤٥م) وله فى كتب الحديث ١٩ حديثًا . [انظر ترجمته فى : الإصابة ٣١٠٩ ، وثمار القلوب ٩٣ ، والتاج ٦ /٣٨٠ والأعلام للزركلى ص ٣ /٠] .

مُيسَّر » وفى لفظ آخر : « فقال رسول الله ﷺ : كل عامل ميسر بعمله » [٣٥] .

وفى الصحيحين عن على بن أبى طالب [٣٦] رضى الله عنه ، قال : « كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ، ﷺ ، فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة [٣٧] فنكس فجعل ينكت بمخصرته ، ثم قال : ما منكم من أحد ، ما من نفس منفوسة إلَّا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، إلا

---

(٣٥) سبق تخريجه .

(٣٦) هو أبو الحسن : على بن أبى طالب بن عبد المطلب الهاشمى القرشى : ابن عم النبى ﷺ وصهره ، أمير المؤمنين ، رابع الخلفاء الراشدين ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، الخطيب البارع البطل الشجاع ، وأول الناس إسلامًا بعد خديجة ، وكان قدره حين تولى الخلافة أن يواجه فتنة مقتل عثمان ، وخروج معاوية عن طاعته ، وخروج الخوارج الذين قتله أحدهم ، عاش قرابة ٦٣ سنة ما بين (٢٣ ق . هـ . /٦٠٠م) و(٤٠هـ /٦٦١م) . وله فى كتب الحديث ٥٨٦حديثًا . [انظر ترجمته فى : الطبرى ٦ /٨٣ ، وصفة الصفوة (١ /١١٨) ، وحلية الأولياء ١ /٦١ ، ومنهاج السنة ٣ /٢ وما بعدها ، ثم ٤ /٢ إلى آخر الكتاب ، والإصابة ٥٦٩٠ والأعلام الزركلى ص ٤ /٢٩٥] .

(٣٧) هى عصا أو قضيب يمسكه الرئيس ليتوكأ عليه ويدفع به عنه ويشير به لما يريد ، وسميت بذلك لأنها تحمل تحت الخصر غالبًا للاتكاء عليها : (الفتح – ص ١١ /٥٠٥) .

وقد كُتبت شقية أو سعيدة ، فقال رجل : يا رسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ، من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة . فقال : اعملوا ، فكل ميسر ، أما أهل السعادة فَسَيُيَسَّرونَ لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فسييسرون إلى عمل أهل الشقاوة . ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (٣٨) وفى رواية البخارى : « أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ فمن كان منا من اهل السعادة سيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة سيصير إلى عمل أهل الشقاوة . وقال : أما عمل أهل السعادة » الحديث .

وفي رواية فى الصحيحين عن على قال : « كان رسول الله ﷺ ذات يوم وفى يده عود ينكت به ، فرفع رأسه فقال : ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار ، فقالوا : يا رسول الله ، فَلِمَ نعمل ؟ أو لا نتكل ؟ قال : لا ،

(٣٨) الآيات من ٥ — ١٠ من سورة الليل .والحديث سبق تخريجه .

اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ إلى قوله ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾[38] .

فقد أخبر النبى ، ﷺ ، فى هذه الأحاديث وغيرها بما دل عليه القرآن أيضًا من أن الله سبحانه وتعالى تقدم علمه وكتابه وقضاؤه بما سيصير إليه العباد من السعادة والشقاوة ، كما تقدم علمه وكتابه بغير ذلك من أحوال العباد وغيرهم ، كما فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود[39] قال : « حدثنا رسول الله ، ﷺ - وهو الصادق المصدوق - : إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكًا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقى أو سعيد ،

---

(٣٩) هو أبو عبد الرحمن : عبد الله بن مسعود غافل بن حبيب الهذلى ، من أكبر الصحابة رضوان الله عليهم ، ومن أسبقهم إلى الإسلام ، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة . . خدم رسول الله ﷺ وصحبه فى حله وترحاله ، قيل فيه إنه وعاء ملئ علمًا ، وشهدوا له بالفضل والعقل . له فى كتب الحديث ٨٤٨ حديثًا ، وتوفى بالمدينة سنة (٣٢هـ/٦٥٣م) . [انظر ترجمته فى : الإصابة ٤٩٥٥ ، وصفة الصفوة ٢ /١٥٤ ، وحلية الأولياء ١ /١٢٤ والأعلام للزركلى ص ٤ /١٣٧] .

ثم ينفخ فيه الروح ، فوالذى لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »[٤٠]
وفى الصحيحين عن أنس بن مالك[٤١] ورفع الحديث قال : « إن الله وكل بالرحم ملكًا فيقول : أى رب نطفة ، أى رب علقة ، أى رب مضغة ، فإذا أراد أن يقضى خلقه قال الملك : أى رب ، ذكر أو أنثى ؟ شقى أو سعيد ؟ فما

---

(٤٠) أخرجه البخارى (٢ /٣٠٨و ٣٣٢ -٣٣٣و ٤ /٢٥١) ، ومسلم (٨ /٤٤) ، وأبو داود (٤٧٠٨) ، والترمذى (٢ /١٩ -٢٠) ، وابن ماجه (٧٦) ، وأحمد (١ /٣٨٢ -٤٣٠) . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح،وقد ذكره الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) برقم ١٥٤٣ ص ١ /٣٢١ ، وفى (إرواء الغليل) برقم ٢١٤٣ص ٧ /٢١٦ .

(٤١) أبو ثمامة أو أبو حمزة : أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجارى الخزرجى الأنصارى ، صاحب رسول الله ، ﷺ . وخادمه ، روى عنه ٢٢٨٦ حديثًا ، ولد بالمدينة سنة (١٠ ق .هـ . /٦١٢م) وتوفى بالبصرة سنة (٩٣ هـ /٧١٢م) ، وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة . [انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ٧ /١٠ ، وتهذيب ابن عساكر ٣ /١٣٩ ، وصفة الصفوة ١ /٢٩٨و الأعلام للزركلى ص ٢ /٢٤] .

الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب ذلك فى بطن أمه » [٤٢]

وهذا المعنى فى صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد الغفارى [٤٣] أيضًا .

والنصوص والآثار فى تقدم علم الله وكتابته وقضائه وتقديره الأشياء قبل خلقها ، وأنواعها كثيرة جداً .

وقد بَيَّنَ النبى ، ﷺ أن ذلك لا ينافى وجود الأعمال التى بها تكون السعادة والشقاوة ، وأن من كان من أهل

---

(٤٢) رواه أحمد (٣ /١١٦) ، ومسلم فى (كتاب القدر) حديث رقم ٥ ص ٦ /٨ باب (كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه) ، ورواه البخارى فى كتاب الحيض (باب : مخلقة وغير مخلقة) ، وفى كتاب أحاديث الأنبياء (باب : خلق آدم وذريته) ، وفى كتاب القدر (١) . انظر (الفتح) حديث رقم ٣١٨ ص ١ /٤٩٨ ، وكذا الحديثين رقم ٣٣٣٣ ص ٦ /٤١٩ ، ورقم ٦٥٩٥ ص ١١ /٤٨٦ .

(٤٣) هو حذيفة بن أسيد (الصحابى) : يقال أمية بن أسيد بن خالد بن الأعور الغفارى أبو سريحة (مشهور بكنيته) ، قال الحافظ فى الإصابة ١٦٣٩ ص ١ /٣٣٢ : شهد الحديبية وذكر فيمن بايع تحت الشجرة ثم نزل الكوفة ، وروى أحاديث ، أخرج له مسلم وأصحاب السنن ، وله عن أبى بكر وأبى ذر وعلى – روى عنه أبو الطفيل ، ومن التابعين الشعبى وغيره ، قال أبو سليمان المؤذن : توفى فصلى عليه زيد بن أرقم ، وقال ابن حبان : مات سنة ٤٢ هـ .

السعادة فإنه يُيَسَّر لعمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فإنه ييسر لعمل أهل الشقاوة ، وقد نهى أن يتكل الإنسان على القدر السابق ويدع العمل ؛ ولهذا كان من اتكل على القدر السابق وترك ما أُمِرَ به من الأعمال هو من الأخسرين أعمالًا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وكان تركهم لما يجب عليهم من العمل من جملة المقدور الذى يسروا به لعمل أهل الشقاوة ، فإن أهل السعادة هم الذين يفعلون المأمور ويتركون المحظور ، فمن ترك العمل الواجب الذى أُمِرَ به وفَعَلَ المحظور ، متكلًا على القدر ، كان من جملة أهل الشقاوة ، الميسرين لعمل أهل الشقاوة .

وهذا الجواب الذى أجاب به النبى ﷺ فى غاية السداد والاستقامة ، وهو نظير ما أجاب به فى الحديث الذى رواه الترمذى (٤٤) « أنه قيل : يا رسول الله ، أرأيت أدوية

---

(٤٤) أبو عيسى : محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمى البوغى الترمذى ، نسبة إلى أهل ترمذ (على نهر جيحون) : من أئمة علماء الحديث وحفاظه ، تلميذ البخارى ، وله تصانيف كثيرة أشهرها (الجامع الكبير) أو (صحيح الترمذى) و(الشمائل النبوية) و(العلل) فى الحديث ، عاش فيما بين (٢٠٩ هـ /٨٢٤م)و(٢٧٩هـ /٨٩٢م) . [انظر ترجمته فى : تهذيب التهذيب ٩ /٣٨٧ ، ونكت الهميان ٢٦٤ ، وأنساب السمعانى ٩٥ ، وتذكرة =

نتداوى بها ، ورقى نسترق بها ، وتقاة نتقيها ، هل ترد من قَدر الله شيئًا ؟ فقال : هى من قدر الله » [٤٥] وذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو يعلم الأشياء على ما هى عليه وكذلك يكتبها ، فإذا كان قد علم أنها تكون بأسباب من عمل وغيره وقضى أنها تكون كذلك وقدر ذلك لم يجز أن يظن أن تلك الأمور تكون بدون الأسباب التى جعلها الله أسبابًا ، وهذا عام فى جميع الحوادث .

مثال ذلك : إذا علم الله وكتب أنه سَيُولد لِهَذَيْن ولد ، وجعل الله سبحانه ذلك معلقًا باجتماع الأبوين على النكاح وإنزال الماء المهين الذى ينعقد منه الولد ، فلا يجوز أن يكون وجود الولد بدون السبب الذى عَلَّق به وجود الولد ، والأسباب وإن كانت (نوعين) معتادة وغريبة :

فالمعتادة : كولادة الآدمى من أبوين ، والغريبة : كولادة الإنسان من أم فقط كما ولد عيسى ، أو من أب فقط كما

= الحفاظ ٢ /١٨٧ والأعلام للزركلى ص ٦ /٣٢٢] .

(٤٥) رواه ابن ماجه والترمذى وأحمد ، وضعفه الألبانى فى (التعليقات الرضية على الروضة الندية) (٢ /٢٢٨) . انظر (ضعيف سنن ابن ماجه) حديث رقم ٧٤٩ ص ٢٧٨ .

ولدت حواء ، أو من غير أبوين كما خلق آدم أبو البشر من طين .

فجميع الأسباب قد تقدم علم الله بها وكتابته لها ، وتقديره إياها ، وقضاؤه بها ، كما تقدم [ربط][46] ذلك بالمسببات ، كذلك أيضًا الأسباب التى بها يخلق النبات من إنزال المطر وغيره من هذا الباب ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾[47] ، وقال : ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾[48] وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾[49] وأمثال ذلك . فجميع ذلك مقدر معلوم ، مقضى مكتوب قبل تكوينه ، فمن ظن أن الشىء إذا علم وكتب أنه يكفى ذلك فى وجوده ولا يحتاج إلى ما به يكون من الفاعل الذى يفعله وسائر الأسباب ، فهو جاهل ضالٌّ ضلالًا مبينًا ، من وجهين :

---

(٤٦) ما بداخل القوسين من وضع المحقق ليستقيم السياق .

(٤٧) جزء من الآية ١٦٤ من سورة البقرة .

(٤٨) جزء من الآية ٥٧ من سورة الأعراف .

(٤٩) جزء من الآية ٣٠ من سورة الأنبياء .

(**أحدهما**) : من جهة كونه جعل العلم جهلًا ، فإن العلم يطابق المعلوم ، ويتعلق به على ما هو عليه ، وهو سبحانه قد علم أن المكونات تكون بما يخلقه من الأسباب ؛ لأن ذلك هو الواقع ، فمن قال : إنه يعلم شيئًا بدون الأسباب ، فقد قال على الله الباطل ، وهو بمنزلة من قال : إن الله يعلم أن هذا الولد ولد بلا أبوين ، وأن هذا النبات نبت بلا ماء ، فإن تعلق العلم بالماضى والمستقبل سواء ، فكما أن من أخبر عن الماضى بعلم الله بوقوعه بدون الأسباب يكون مبطلًا ، فكذلك من أخبر عن المستقبل كقول القائل : إن الله علم أنه خلق آدم من غير طين ، وعلم أنه يتناسل الناس من غير تناكح ، وأنه أنبت الزروع من غير ماء ولا تراب فهو باطل ، فلو قال قائل : إن الله أخرج آدم من الجنة بلا ذنب ، وأنه قدر ذلك ، أو قال : إنه غفر لآدم بلا توبة ، وأنه علم ذلك ، كان هذا كذبًا وبهتانًا ، بخلاف ما إذا قال : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾[50] ، ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا

---

(٥٠) جزء من الآية ٣٧ من سورة البقرة .

﴿ مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [٥١] فإنه يكون صادقًا فى ذلك . والله سبحانه علم ما يكون من آدم قبل أن يكون ، وهو عالم به بعد أن كان .

وكذلك كل ما أخبر به من (قصص الأنبياء) فإنه علم أنه أهلك قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وفرعون ، ولوط ، ومدين ، وغيرهم بذنوبهم ، وأنه نجى الأنبياء ومن اتبعهم بإيمانهم وتقواهم ، كما قال : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [٥٢] ، وقال : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [٥٣] ، وقال : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ [٥٤] ، وقال : ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [٥٥] .

---

(٥١) جزء من الآية ١٢١ من سورة طه .

(٥٢) الآية ١٦٥ من سورة الأعراف .

(٥٣) جزء من الاية ٤٠ من سورة العنكبوت .

(٥٤) جزء من الآية ١٤٦ من سورة الأنعام .

(٥٥) جزء من الآية ٢١ من سورة غافر .

وقال : ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [٥٦]، وقال : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [٥٧] ، وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [٥٨]، وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . [٥٩] وقال : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ . [٦٠] وقال: ﴿ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ . [٦١] وقال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ

---

(٥٦) جزء مس الآية ٦ من سورة الأنعام .

(٥٧) الآيتان ٥٢ و٥٣ من سورة النمل .

(٥٨) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٥٩) الآية ٥٦ من سورة يوسف .

(٦٠) الآية ٣ من سورة الإسراء .

(٦١) جزء من الآية ٣٤ والآية ٣٥ من سورة القمر .

عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾.[62] وأمثال ذلك فى القرآن كثير .

وكذلك خبره عما يكون من السعادة والشقاوة بالأعمال ، كقوله : ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ .[63] وقوله تعالى : ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ .[64] وقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ .[65] وقوله : ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ .[66] وقوله : ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾[67] الآيات . وقوله : ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[68] ،

(٦٢) جزء من الآية ١٣٧ من سورة الأعراف .

(٦٣) الآية ٢٤ من سورة الحاقة .

(٦٤) الآية ٧٢ من سورة الزخرف .

(٦٥) جزء من الآية ٢١ من سورة الطور .

(٦٦) الآية ١١١ من سورة المؤمنين .

(٦٧) الآية ١٢ من سورة الإنسان .

(٦٨) الآية ٣٦ من سورة المطففين .

وقوله : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ ،(٦٩) وأمثال هذا فى القرآن كثير جدًا .

بين سبحانه فيما يذكره من سعادة الآخرة ، وشقاوتها أن ذلك كان بالأعمال المأمور بها والمنهى عنها ، كما يذكر نحو ذلك فيما يقضيه من العقوبات والمثوبات فى الدنيا أيضًا .

(**والوجه الثانى**) : أن العلم بأن الشيء سيكون والخبر عنه بذلك وكتابة ذلك لا يوجب استغناء ذلك عما به يكون من الأسباب التى لا يتم إلا بها ، كالفاعل وقدرته ومشيئته ، فإن اعتقاد هذا غاية فى الجهل ، إذْ هذا العلم ليس موجبًا بنفسه لوجود المعلوم باتفاق العلماء ، بل هو مطابق له على ما هو عليه لا يكسبه صفة ولا يكتسب منه صفة بمنزلة علمنا بالأمور التى [قبلنا] (٧٠) كالموجودات التى كانت قبل وجودنا ، مثل علمنا بالله وأسمائه وصفاته ، فإن هذا العلم

---

(٦٩) الآيات ٤٢ - ٤٨ من سورة المدثر .

(٧٠) ما بداخل القوسين من وضع المحقق ليستقيم السياق .

ليس مؤثرًا فى وجود المعلوم باتفاق العلماء ، وإن كان من علومنا ما يكون له تأثير فى وجود المعلوم : كعلمنا بما يدعونا إلى الفعل ويعرفنا صفته وقدره ، فإن الأفعال الاختيارية لا تصدر إلا ممن له شعور وعلم ؛ إذ الإرادة مشروطة بوجود العلم ، وهذا التفصيل الموجود فى علمنا بحيث ينقسم إلى علم فعلي له تأثير فى المعلوم ، وعلم انفعالى لا تأثير له فى وجود المعلوم – هو فصل الخطاب فى العلم .

فإن من الناس من يقول : (العلم) صفة انفعالية لا تأثير له فى المعلوم ، كما يقول طوائف من أهل الكلام ، ومنهم من يقول بل هو صفة فعلية له تأثير فى المعلوم ، كما يقوله طوائف من أهل الفلسفة والكلام .

والصواب أنه (نوعان) كما بيناه – وهكذا علم الرب تبارك وتعالى ، فإن علمه بنفسه سبحانه لا تأثير له فى وجود المعلوم ، وأما علمه بمخلوقاته التى خلقهابمشيئته وإرادته فهو مما له تأثير فى وجود معلوماته ، والقول فى الكلام والكتاب كالقول فى العلم : فإنه سبحانه وتعالى إذا خلق الشىء خلقه بعلمه وقدرته ومشيئته ؛ ولذلك كان الخلق مستلزمًا للعلم ودليلًا عليه ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ

﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[71] . وأما إذا أخبر بما سيكون قبل أن يكون فعلمه وخبره حينئذ ليس هو المؤثر فى وجوده لعلمه وخبره به بعد وجوده لثلاثة أوجه :

(**أحدها**) : أن العلم والخبر عن المستقبل كالعلم والخبر عن الماضى .

(**الثانى**) : أن العلم المؤثر هو المستلزم للإرادة المستلزمة للخلق ، ليس هو ما يستلزم الخبر ، وقد بينا الفرق بين العلم العملى والعلم الخبرى .

(**الثالث**) : أنه لو قدر أن العلم والخبر بما سيكون له تأثير فى وجود المعلوم المخبر به فلا ريب أنه لابد مع ذلك من القدرة والمشيئة ، فلا يكون مجرد العلم موجبًا له بدون القدرة والإرادة . فتبين أن العلم والخبر والكتاب لا يوجب الاكتفاء بذلك عن الفاعل القادر المريد ، مما يدل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى يعلم ويخبر بما سيكون من مفعولات الرب ، كما يعلم أنه سيقيم القيامة ويخبر بذلك ، ومع ذلك

---

(٧١) الآية ١٤ من سورة الملك .

فمعلوم أن هذا العلم والخبر لا يوجب وقوع المعلوم المخبر به بدون الأسباب التى جعلها الله أسبابًا له .

إذا تبين ذلك فقول السائل : السعيد لا يشقى ، والشقى لا يسعد ، كلام صحيح : أى مَنْ قَدَّرَ الله أن يكون سعيدًا ، يكون سعيدا لكن بالأعمال التى جعله يسعد بها،والشقى لا يكون شقيًا إلا بالأعمال التى جعله يشقى بها ، التى من جملتها الاتكال على القدر ، وترك الأعمال الواجبة.

وأما قوله : والأعمال لا تراد لذاتها ، بل لجلب السعادة ودفع الشقاوة ، وقد سبقنا وجود الأعمال ، فيقال له : السابق نفس السعادة والشقاوة ، أو تقدير السعادة والشقاوة علمًا وقضاءً وكتابًا ، هذا موضع يشتبه ويغلط فيه كثير من الناس ، حيث لا يميزون بين ثبوت الشىء فى العلم والتقدير ، وبين ثبوته فى الوجود والتحقيق .

فإن الأول هو العلم به والخبر عنه ، وكتابته ، وليس شىء من ذلك داخلًا فى ذاته ولا فى صفاته القائمة به ؛ ولهذا يغلط كثير من الناس فى قول ، النبى ﷺ ، فى الحديث الصحيح الذى رواه ميسرة [٧٢] قال : « قلت : يا رسول الله ، متى

(٧٢) هو ميسرة الفجر ، أو ميسرة الفخر (كما فى حلية الأولياء :

كنت نبيًّا ؟ – وفى رواية – متى كُتبت نبيًّا ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد »(٧٣) . فيظنون أن ذاته ونبوته وجدت حينئذ ، وهذا جهل ، فإن الله إنما نبأه على رأس أربعين من عمره ، وقد قال له: ﴿ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾(٧٤) ، وقال : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴾(٧٥) . وفى الصحيحين : « إن الملك قال

---

٧ /١٢٢) · وهو عبد الله بن أبى الجدعاء التميمى ، ويقال : الكنانى ، ويقال : العبدى . صحابى ذكره البخارى والبغوى وابن السكن وغيرهم فى الصحابة ، وأخرجوا من طريق بديل بن ميسرة عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر ، قال · قلت يا رسول الله متى كنت نبيًّا ؟ . . فذكره . . قال الحافظ فى (الإصابة) رقم ٨٢٧٧ ص ٦ /١٤٩ : وهذا سند قوى ، لكن اختلف فيه على بديل بن ميسرة ، فرواه منصور بن سعيد عنه هكذا ، وخالفه حماد بن زيد فرواه عن بديل عن عبد الله بن شقيق . لم يذكر ميسرةَ . وقد قيل : إنه عبد الله بن أبى الجدعاء وميسرة لقب .

(٧٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٥ /٥٩) ، وابن أبى عاصم فى (السنة) رقم ٤١٠ ، وأبو نعيم فى (الحلية) (٩ /٥٣) ، وأخرجه البخارى فى (التاريخ) (٤ /١ /٣٧٤) ، وابن سعد (٧ /٦٠) . وصححه الألبانى فى (سلسلة الأحاديث الصحيحة) رقم ١٨٥٦ ص ٤ /٤٧١ . وقد رواه الترمذى عن أبى هريرة : حديث رقم ٣٨٧٠ ، وهو فى (صحيح سنن ابن ماجه) للألبانى برقم ٢٨٥٦ص ٣ /١٨٩ .

(٧٤) جزء من الآية ٣ من سورة يوسف .

(٧٥) الآية ٧ من سورة الضحى .

له : – حين جاءه – اقرأ فقال : لست بقارئ – ثلاث مرات – »[٧٦] .

ومن قال : إن النبى ، ﷺ ، كان نبيًّا قبل أن يوحى إليه فهو كافر باتفاق المسلمين ، وإنما المعنى أن الله كتب نبوته فأظهرها وأعلنها بعد خلق جسد آدم ، وقبل نفخ الروح فيه ، كما أخبر أنه يكتب رزق المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته بعد خلق جسده ، وقبل نفخ الروح فيه ، كما فى حديث العرباض بن سارية[٧٧] الذى رواه أحمد[٧٨] وغيره

---

(٧٦) حديث صحيح أخرجه البخارى (١ /٢٨ –٢٣) ، ومسلم (١ /٩٧ –٩٨) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٧٧) العرباض بن سارية السلمى : أبو نجيح : صحابى مشهور من أهل الصفة ، لعله رابع من أسلم من الرجال ، وهو ممن نزل فيه قوله تعالى : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ . . قال محمد بن عوف : كان قديم الإسلام جداً ، وقال خليفة : مات فى فتنة ابن الزبير ، وقال أبو مسهر وغير واحد : مات بعد ذلك سنة خمس وسبعين . [انظر ترجمته فى : الإصابة ٥٤٩٣ ص ٤ /٢٣٤ ، وتهذيب التهذيب ٣٤٠ ص ٧ /١٧٤] .

(٧٨) أبو عبد الله : أحمد بن محمد بن حنبل ، الإمام المحدث الفقيه صاحب الشهرة ، إليه ينسب المذهب الحنبلى ، كان جَوَّالًا فى طلب العلم ، له (المسند) المشتمل على ثلاثين ألف حديث ، خالف المعتزلة فتعرض للامتحان والتعذيب ، ولد فى بغداد (١٦٤هـ /٧٨٠م) وتوفى فيها (٢٤١هـ /٨٥٥م) . [انظر فى ترجمته : ابن عساكر ٢ /٢٨ ، وحلية =

عن النبى ﷺ أنه قال : « إنى عبد الله وخاتم النبين »[٧٩] .
وفى رواية : « إنى عند الله لمكتوب خاتم النبين ، وإن آدم لمجندل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورؤيا أمى ، رأت حين ولدتنى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » .

وكثير من الجهال المصنفين وغيرهم يرويه : « كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين » . . « وآدم لا ماء ولا طين » ويجعلون ذلك وجوده بعينه ، وآدم لم يكن بين الماء والطين ، بل الماء بعض الطين لا مقابله .

وإذا كان كذلك ، فإنْ قال : السابق نفس السعادة والشقاوة فقد كذب ، فإن السعادة إنما تكون بعد وجود الشخص الذى هو السعيد ، وكذلك الشقاوة ، لا تكون إلا

أولياء ٩ /١٦١ ، وصفة الصفوة ٢ /١٩٠ ، وابن خلكان ١ /١٧ ، وتاريخ بغداد ٤ /٤١٢ ، والبداية والنهاية ١٠ /٣٢٥ - ٣٤٣ والأعلام للزركلى ص ١ /٢٠٣] .

(٧٩) رواه أحمد والطبرانى والحاكم وأبو نعيم فى (الحلية) ، والبيهقى فى (شعب الإيمان) عن عرباض بن سارية ، وضعفه الألبانى فى (ضعيف الجامع الصغير) رقم ٢٠٩٠ ص ١ /٢٢٣ ، ونوه إلى تضعيفه له فى (سلسلة الأحاديث الضعيفة وأثرها السيئ فى الأمة) رقم ٢٠٨٥ .

بعد وجود الشقى ، كما أن العمل والرزق لا يكون إلا بعد وجود العامل ، ولا يصير رزقًا إلا بعد وجود المرتزق ، وإنما السابق هو العلم بذلك وتقديره لا نفسه وعيه ، وإذا كان كذلك فالعمل - أيضًا - سابق كسبق السعادة والشقاوة ، وكلاهما معلوم مُقَدَّرٌ ، وهما متأخران فى الوجود ، والله سبحانه علم وقدر أن هذا يعمل كذا فيسعد به ، وهذا يعمل كذا فيشقى به ، وهو يعلم أن هذا العمل الصالح يجلب السعادة ، كما يعلم سائر الأسباب والمسببات ، كما أن هذا يأكل السم فيموت ، وأن هذا يأكل الطعام فيشبع ، ويشرب الشراب فيروى ، وظهر فساد قول السائل : فلا وجه لإتعاب النفس فى عمل ، ولا لكفها عن ملذوذات ، والمكتوب فى القِدَمِ واقع لا محالة .

وذلك أن المكتوب فى القِدِم هو سعادة السعيد لما يُسِّر له من العمل الصالح ، وشقاوة الشقى لما يسر له من العمل السيئ ، ليس المكتوب أحدهما دون الآخر . فما أُمِرَ به العبد من عمل فيه تعب أو امتناع عن شهوة هو من الأسباب التى تُنَالُ بها السعادة . والمقدر المكتوب هو السعادة والعمل الذى به ينال السعادة ، وإذا ترك العبد ما أُمِرَ به متكلًا على الكتاب

كان ذلك من المكتوب المقدور الذى يصير به شقيًا ، وكان قوله ذلك بمنزلة من يقول : أنا لا آكل ولا أشرب ، فإن كان الله قضى بالشبع والرى حصل ، وإلا لم يحصل ، أو يقول لا أجامع امرأتى فإن كان الله قضى لى بولد فإنه يكون .

وكذلك من غلط فترك الدعاء ، أو ترك الاستعانة والتوكل ، ظاناً أن ذلك من مقامات الخاصة ناظرًا إلى القدر ، فكل هؤلاء جاهلون ضالون ، ويشهد لهذا ما رواه مسلم فى صحيحه عن النبى ، ﷺ ، أنه قال : « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجزن ، وإن أصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قَدَّرَ الله وما شاء فعل ، فإن « لو » تفتح عمل الشيطان »[(٨٠)] .

فأمره بالحرص على ما ينفعه ، والاستعانة بالله ، ونهاه عن العجز الذى هو الاتكال على القَدَر ، ثم أمره إذا أصابه شىء ألا ييأس على ما فاته ، بل ينظر إلى القدر ويسلم الأمر لله ،

---

(٨٠) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة ، وَحسَّنه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) حديث رقم ٦٦٥٠ ص ٢ /١١٢٩ .

فإنه هنا لا يقدر على غير ذلك ، كما قال بعض العقلاء : الأمور (أمران) أمر فيه حيلة ، وأمر لا حيلة فيه ، فما فيه حيلة لا يعجز عنه ، وما لا حيلة فيه لا يجزع منه .

وفى سنن أبى داود(٨١) أن رجلين اختصما إلى النبى ، ﷺ ، فقضى على أحدهما فقال المقضى عليه : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فقال النبى ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل : حسبى الله ونعم الوكيل »(٨٢) . وفى الحديث الآخر : « الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى »(٨٣) ورواه ابن

(٨١) هو أبو داود : سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدى السجستانى (٢٠٢هـ /٨١٧م – ٢٧٥هـ /٨٨٩م) من أهل الحديث ، له (السنن) يحتوى على ٤٨٠٠ حديث منتقاة من أصل ٥٠٠٠٠٠ حديث . [انظر ترجمته فى : تذكرة الحفاظ ٢ /١٥٢ ، وطبقات الحنابلة ١١٨ ، وتهذيب ابن عساكر ٦ /٢٤٤ ، وتاريخ بغداد ٩ /٥٥ ، وابن خلكان ١ /٢١٤ والأعلام للزركلى ص ٣ /١٢٢] .

(٨٢) رواه أبو داود عن عوف بن مالك : (كتاب الأقضية) حديث رقم ٣٦٢٧ ص ٣ /٣١٣ ، والحديث صحيح أورده الألبانى فى (صحيح الكلم الطيب) .

(٨٣) رواه الترمذى وابن ماجه كما قال ، وضعّفه الألبانى فى تخريجه لأحاديث =

ماجه[٨٤] والترمذى[٨٥] وقال : حديث حسن .

وعن شداد بن أوس[٨٥] قال : قال رسول الله ﷺ « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من إتبع نفسه هواها وتمنى على الله عز وجل » .[٨٦] ومن الناس من يصحفه فيقول الفاجر وإنما هو العاجز فى مقابلة الكيِّس ، كما

= (مشكاة المصابيح) للتبريزى ص ٣ /١٤٥٤ كتاب (الرقاق) باب (استحباب المال والعمر للطاعة) حديث رقم ٥٢٨٩ .

(٨٤) هو أبو عبد الله ابن ماجه : محمد بن يزيد الربعى القزوينى ، من أئمة علم الحديث ، صاحب (سنن ابن ماجه) أحد الكتب الستة المعتمدة ، وهو من أهل قزوين ، ورحل إلى البصرة وبغداد والشام ومصر الحجار والرى فى طلب الحديث . عاش فيما بين (٢٠٩هـ /٨٢٤م) و(٢٧٣هـ /٨٨٧م) .
[انظر فى ترجمته : وفيات الأعيان ١ /٤٨٤ ، وتهذيب التهذيب ٩ /٥٣٠ ، وتذكرة الحفاظ ٢ /١٨٩ والأعلام للزركلى ص ٧ /١٤٤] .

(٨٥) سبقت ترجمته .

(٨٦) أبو يعلى : شداد بن أوس بن ثابت الخزرجى الأنصارى : من الصحابة الأمراء الحكماء ، ولاه عمر إمارة حمص ، واعتزل لما قتل عثمان وتفرغ للعبادة ، له فى كتب الحديث ٥٠ حديثًا ، وقال أبو الدرداء فيه : لكل أمة فقيه ، وفقيه هذه الأمة : شداد بن أوس . توفى بالقدس (٥٨هـ /٦٧٧م) عن ٧٥ سنة (انظر ترجمته فى : الإصابة ٣٨٤٢ ، وتهذيب التهذيب ٤ /٣١٥ ، وصفة الصفوة ١ /٢٩٦ ، وحلية الأولياء ١ /٢٦٤ والأعلام للزركلى ٣ /١٥٨] .

فى الحديث الآخر : « كل شىء بِقَدرٍ حتى العجز والكيس »[87] .

وهنا سؤال يعرض لكثير من الناس وهو : أنه إذا كان المكتوب واقعًا لا محالة ، فلو لم يأت العبد بالعمل هل كان المكتوب يتغير ؟ وهذا السؤال يقال فى مسألة المقتول – يقال لو لم يقتل هل كان يموت ؟ ونحو ذلك .

فيقال هذا لو لم يعمل عملًا صالحًا لما كان سعيدًا ، ولو لم يعمل عملًا سيئًا لما كان شقيًّا ، وهذا كما يقال : إن الله يعلم ما كان وما يكون ، وما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، فإن هذا من باب العلم والخبر بما لا يكون لو كان

---

(87) رواه مالك (٣ /٩٣) وعنه مسلم فى صحيحه (٨ /٥١) والبخارى فى (أفعال العباد) ص ٧٣ ، وإن لم يورده فى (الجامع الصحيح) ، وأحمد فى (المسند) (٢ /١١٠) : كلهم عن مالك عن زياد بن سعد عن عمرو بن مسلم عن طاووس اليمانى أنه قال : أدركت ناسًا من أصحاب الرسول ﷺ يقولون : كل شىء بقدر ، نقل الألبانى قول طاووس : سمعت عبد الله بن عمر يقول : . . فذكره مرفوعًا .

وقد صححه الألبانى فى (سلسلة الأحاديث الصحيحة) برقم ٨٦١ ص ٢ /٤٤١ .

كيف يكون ، كقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٨٨] ، وقوله : ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾[٨٩] ، وقوله : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾[٩٠] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ .[٩١] وأمثال ذلك . كما روى أنه يُقال للعبد فى قبره حين يفتح له باب إلى الجنة وإلى النار ، ويقال : هذا منزلك ، ولو عملت كذا وكذا أبدلك الله به منزلًا آخر .

وكذلك يقال هذا لو لم يقتله هذا لم يمت ، بل كان يعيش إلَّا أن يقدر له سبب آخر يموت به ، واللازم فى هذه الجملة خلاف الواقع المعلوم والمقدور ، والتقدير للممتنع قد يلزمه حكم ممتنع ، ولا محذور فى ذلك .

ومما يشبه هذه المسألة أن النبى ، ﷺ ، خرج يوم بدر فأخبر أصحابه بمصارع المشركين فقال : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان »[٩٢] ، ثم إنه دخل العريش ،

(٨٨) جزء من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء .

(٨٩) حزء من الآية ٢٨ من سورة الأنعام .

(٩٠) جزء من الآية ٤٧ من سورة التوبة .

(٩١) جزء من الآية ٢٣ من سورة الأنفال .

(٩٢) رواه مسلم فى (كتاب الجهاد) باب (فى غزوة بدر) (٥ / ١٧٠) =

وجعل يجتهد فى الدعاء ، ويقول« اللهم أنجز لى ما وعدتنى »[٩٣] ؛ وذلك لأن علمه بالنصر ، لا يمنع أن يفعل السبب الذى به يُنْصَرُ ، وهو الاستعانة بالله .

وقد غلط بعض الناس هنا وظن أن الدعاء الذى علم وقوع مضمونه – كالدعاء الذى فى آخر سورة البقرة – لا يشرع إلا عبادة محضة ، وهذا كقول بعضهم : إن الدعاء ليس هو إلا عبادة محضة ؛ لأن المقدور كائن – دعا أو لم يدع .

فيقال له : إذا كان الله قد جعل الدعاء سببًا لنيل المطلوب المقدر فكيف يقع بدون الدعاء ؟ وهو نظير قولهم : أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟

ومما يوضح [ذلك][٩٤] أن الله قد علم وكتب أنه يخلق الخلق ويرزقهم ويميتهم ويحييهم ، فهل يجوز أن يظن أن تَقَدُّمَ

= من حديث أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، ورواه أحمد (١ /٢٦ و٣ /٢١٩ – ٢٥٨) ومثله عند أبى داود والنسائى .

(٩٣) حديث صحيح أخرجه مسلم فى (كتاب الجهاد) باب (فى الإمداد بالملائكة وفداء الأسارى وتحليل الغنيمة) (٥ /١٥٦ – ١٥٧) ، ورواه أحمد (٢٠٨ و٢٢١) من حديث عمر بن الخطاب .

(٩٤) ما بين القوسين من إضافة المحقق .

العلم والكتاب مُغْنٍ لهذه الكائنات عن خلقه وقدرته ومشيئته ، فكذلك علم الله بما يكون من أفعال العباد ، وأنهم يسعدون بها ، ويشقون ، كما يعلم – مثلا – أن الرجل يمرض أو يموت بأكله السم ، أو جرحه نفسه ، ونحو ذلك .

وهذا الذى ذكرناه مذهب سلف الأمة وأئمتها ، وجمهور (الطوائف) من أهل الفقه والحديث والتصوف والكلام وغيرهم ، وإنما نازع فى ذلك غلاة القدرية ، وظنوا أن تقدم العلم يمنع الأمر والنهى ، وصاروا فريقين :

(فريق) أقروا بالأمر والنهى والثواب والعقاب ، وأنكروا أن يتقدم بذلك قضاء وقدر وكتاب ، وهؤلاء نبغوا فى أواخر عصر الصحابة ، فلما سمع الصحابة بدعهم تبرءوا منهم كما تبرءوا منهم ، ورد عليهم عبد الله بن عمر[٩٥] ، وعبد الله بن

(٩٥) أبو عبد الرحمن : عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوى : صحابى جليل ، نشأ فى الإسلام ، وهاجر مع أبيه إلى المدينة ، وكان يماثله فى الفضل والشرف ، ولد بمكة (١٠ ق . هـ . /٦١٣م) وتوفى فيها (٧٣هـ /٦٩٢م) ، له فى كتب الحديث ٢٦٣٠ حديثًا . [انظر ترجمته فى : الإصابة ٤٨٢٥ ، وابن خلكان ١ /٢٤٦ ، وتهذيب الأسماء ١ /٢٧٨ ، وطبقات ابن سعد ٤ /١٠٥ – ١٣٨ ، وحلية الأولياء ١ /٢٩٢ ، وصفة الصفوة ١ /٢٢٨ والأعلام للزركلى ص ٤ /١٠٨] .

عباس[٩٦] ، وجابر بن عبد الله[٩٧] ، وواثلة بن الأسقع[٩٨] وغيرهم ، وقد نص (الأئمة) كمالك[٩٩] ، والشافعي[١٠٠] ،

---

(٩٦) أبو العباس : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي ، حبر الأمة وترجمان القرآن ، لازم رسول الله ، ﷺ ، فروى عنه الأحاديث الصحيحة التي بلغت ١٦٦٠ حديثًا في الصحيحين وغيرهما . . ولد بمكة (٣ ق . هـ . /٦١٩م) وتوفى بالطائف (٦٨ هـ /٦٨٧م) . [انظر ترجمته في : الإصابة ٤٧٧٢ ، وصفة الصفوة ١ /٣١٤ ، وحلية الأولياء ١ /٣١٤ والأعلام للزركلي ص ٤ /٩٥] .

(٩٧) سبقت ترجمته .

(٩٨)واثلة بن الأسقع بن عبد العزى بن عبد ياليل ، الليثي الكناني ، صحابي من اهل الصفة ، شهد مع النبي ، ﷺ، غزوة تابوك ، وشهد فتح دمشق ، وهو آخر الصحابة موتًا فيها ، عمر طويلًا ، حيث ولد على الأرجح سنة (٢٢ ق . هـ . /٦٠١م) وتوفى سنة (٨٣ هـ /٧٠٢م) . [انظر ترجمته في : تهذيب التهذيب ١١ /١٠١ ، والإصابة ٩٠٨٩ ، والاستيعاب بهامشها ٣ /٦٠٦ ، وصفة الصفوة ١ /٢٧٩ ، وحلية الأولياء ٢ /٢١ والأعلام للزركلي ص ٨ /١٠٧] .

(٩٩) أبو عبد الله : مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري . . أحد الأئمة الأربعة الأعلام ، صاحب (الموطأ) الذى وضعه لما سأله المنصور أن يضع كتابًا للناس يحملهم على العمل به ، كان مشهودًا له بالدين والصلابة ، ولد ومات بالمدينة (٩٣هـ /٧١٢م – ١٧٩هـ /٧٩٥) . [انظر ترجمته في : الوفيات ١ /٤٣٩ ، وتهذيب التهذيب ١٠ /٥ ، وصفة الصفوة ٢ /٩٩ ، وحلية الأولياء ٦ /٣١٦ والأعلام للزركلي ٥ /٢٥٧] .

(١٠٠) أبو عبد الله : محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي =

وأحمد[ ] . على كفر هؤلاء الذين ينكرون علم الله القديم .

و(الفريق الثانى) : من يقر بتقدم علم الله وكتابه ، لكن يزعم أن ذلك يغنى عن الأمر والنهى والعمل ، وأنه لا يحتاج إلى العمل ، بل من قضى له بالسعادة دخل الجنة ، بلا عمل أصلًا ، ومن قضى عليه بالشقاوة شقى بلا عمل ، فهؤلاء ليسوا طائفة معدودة من طوائف أهل المقالات ، وإنما يقوله كثير من جهال الناس . وهؤلاء أكفر من أولئك وأضل سبيلا ، ومضمون قول هؤلاء تعطيل الأمر والنهى والحلال والحرام والوعد والوعيد ، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى بكثير ، وهؤلا هم الذين سأل السائل عن مقالتهم .

القرشى مطلبى ، أحد الأئمة الأربعة الأعلام ، ولد فى غزة (١٥٠هـ /٧٦٧م) ونشأ فى مكة ، وزار بغداد مرتين قبل التوجه إلى مصر حيث توفى فيها (٢٠٤هـ /٨٢٠م) ، اشتهر بالورع وسعة العلم وحدة الذكاء . . من أشهر مؤلفاته (الأم) فى الفقه [انظر ترجمته فى : تهذيب التهذيب ٩ /٢٥ ، والوفيات ١ /٤٤٧ ، وصفة الصفوة ٢ /١٤٠ ، وحلية الأولياء ٩ /٦٣ ، وطبقات الشافعية ١ /١٨٥ والأعلام للزركلى ٦ /٢٦] .

(١٠١) سبقت ترجمته .

وأما (جمهور القدرية) فهم يقرون بالعلم والكتاب المتقدم ، لكن ينكرون أن الله خلق أفعال العباد ، وإرادة الكائنات ، وتعارضهم القدرية المجبرة الذين يقولون ليس للعبد قدرة ولا إرادة حقيقية ولا هو فاعل حقيقة ، وكل هؤلاء مبتدعة ضُلّال .

وشر من هؤلاء من يجعل خلق الأفعال ، وإرادة الله الكائنات مانعة من الأمر والنهى ، كالمشركين الذين قالوا : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾(١٠٢) فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى ، ومضمون قولهم : تعطيل جميع ما جاءت به الرسل كلهم من الأمر والنهى .

ثم قولهم متناقض ، معلوم الفساد بالضرورة ، لا يمكن أن يحيا معه بنو آدم لاستلزامه فساد العباد ، فإنه إذا لم يكن على العباد أمر ونهى كان لكل أحد أن يفعل ما يهواه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾(١٠٣) فإذا قيل : إنه يمكن كل أحد مما يهواه من

(١٠٢) جزء من الآية ١٤٨ من سورة الأنعام .

(١٠٣) جزء من الآية ٧١ من سورة المؤمنون .

قتل النفوس وفعل الفواحش وأخذ الأموال وغير ذلك ، كان ذلك غاية الفساد ، ولهذا لا تعيش أمة من بنى آدم إلا بنوع من الشريعة التى فيها أمر ونهى ، ولو كانت بوضع بعض الملوك مع ما فيها من فساد من وجوه أخرى .

فإن قيل : هذا الذى ذكرتموه يبين أن تقدم علم الله وكتابه بالسعادة والشقاوة وغير ذلك من الأمور لا يمنع توقف ذلك على الأعمال والأسباب التى جعل الله بها تلك الأمور ، وذلك يبين أن ذلك لا يمنع أن يكون العبد عاملًا للعمل الصالح الذى به يسعده الله ، وأن يكون قادرًا على ذلك ، مريدًا له ، وإن كان ذلك كله بتيسير الله للعبد – وإن تنازع الناس فى تسمية ذلك جبرًا – لكن هل يكون العبد قادرًا على غير الفعل الذى فعله الذى سبق به العلم والكتاب ؟ فهذا مما تنازع فيه الناس ، كما تنازعوا فى أن الاستطاعة هل يجب أن تكون مع الفعل أو يجب أن تتقدمه ؟ فمن قال من أهل الإثبات : إن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل ، يقول:العبد لا يستطيع غير ما يفعله ، وهو ما تقدم به العلم والكتاب . ومن قال : إن الاستطاعة قد تتقدم الفعل ، وقد توجد دون الفعل ، فإنه يقول : إنه يكون مستطيعًا لما لم يفعله ، ولما لم وكتب أنه لا يفعله .

وفصل الخطاب ، أن (الاستطاعة) جاءت فى كتاب الله على نوعين :

الاستطاعة المشترطة للفعل ، وهى مناط الأمر والنهى ، كقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[104] ، وقوله : ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[105] ، وقوله : ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[106] الآية. وقوله : ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾[107] ، وقوله : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[108] . وقول النبى ﷺ لعمران بن حصين[109] : « صل قائمًا ، فإن لم تستطع فقاعدًا ، فإن لم تستطع فعلى جنب »[110] . فإن الاستطاعة فى هذه

(١٠٤) جزء من الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

(١٠٥) جزء من الآية ١٦ من سورة التغابن .

(١٠٦) جزء من الآية ٢٥ من سورة النساء .

(١٠٧) جزء من الآية ٤ من سورة المجادلة .

(١٠٨) جزء من الآية ١٨٤ من سورة البقرة .

(١٠٩) سبقت ترجمته .

(١١٠) رواه البخارى قبيل (كتاب التهجد) (١ /٢٨٣) ، وأخرجه =

النصوص لو كانت لا توجد إلا مع الفعل لوجب ألَّا يجب الحج إلا على من حج ، ولا يجب صيام شهرين إلَّا على من صام ، ولا القيام فى الصلاة إلَّا على من قام ، وكان المعنى : على الذين يصومون الشهر طعام مسكين ، والآية إنما أنزلت لما كانوا مخيرين بين الصيام والإطعام فى شهر رمضان .

والاستطاعة التى يكون معها الفعل ، قد يقال هى المقترنة بالفعل الموجبة له – وهى النوع الثانى – وقد ذكروا فيها قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[111] ، وقوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾[112] ، ونحو ذلك قوله : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا

= أبو داود (٩٥٢) ، والترمذى (٢ /٢٠٨) ، وابن ماجه (١٢٢٣) ، والنسائى (١ /٢٤٥) ، والبيهقى (٢ /٣٠٤ و٣٠٨) ، وأحمد (٤ /٤٣٣) . وتخريجه فى (إرواء الغليل) للألبانى ، حديث رقم ٢٩٩ ص ٨ /٢ .

(١١١) الآية ١٠١ من سورة الكهف .

(١١٢) جزء من الآية ٢٠ من سورة هود .

مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدًّا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدًّا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾(١١٣) .

فإن الاستطاعة المنفية هنا – سواء كان نفيها خبرًا أو ابتداء – ليست هى الاستطاعة المشروطة فى الأمر والنهى ، فإن تلك إذا انتفت انتفى الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، والحمد والذم ، والثواب والعقاب ، ومعلوم أن هؤلاء فى هذه الحال مأمورن ، منهيون ، موعودون ، متوعدون ، فعلم أن المنفية هنا ليست المشروطة فى الأمر والنهى المذكورة فى قوله : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾(١١٤) .

لكن قد يقال : الاستطاعة هنا كالاستطاعة المنفية فى قول الخضر لموسى : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴾(١١٥) . فإن هذه الاستطاعة المنفية ، لو كان المراد بها مجرد المقارنة فى الفاعل والتارك لم يكن فرق بين هؤلاء المذمومين وبين المؤمنين ، ولا بين الخضر وموسى ، فإن كل أحد فعل أو لم يفعل لا تكون المقارنة موجودة قبل فعله ، والقرآن يدل على

---

(١١٣) الآيتان ٨ و٩ من سورة يسن .

(١١٤) جزء من الآية ١٦ من سورة التغابن .

(١١٥) جزء من الآيات ٦٧و ٧٢و ٧٥ من سورة الكهف .

أن هذه الاستطاعة إنما نفيت عن التارك لا عن الفاعل ، فعلم أنها مضادة لما يقوم بالعبد من الموانع التى تصد قلبه عن إرادة الفعل وعمله ، وبكل حال فهذه الاستطاعة منتفية فى حق من كتب عليه أنه لا يفعل ، بل وقضى عليه بذلك .

وإذا عرف هذا التقسيم ـ أن إطلاق القول بأن العبد لايستطيع غير ما فعل ، ولا يستطيع خلاف المعلوم المقدر ، وإطلاق القول بأن إستطاعة الفاعل والتارك سواء ، وأن الفاعل لا يختص عن التارك باستطاعة خاصة [عرف أن][116] كلا الإطلاقين خطأ وبدعة .

ولهذا اتفق سلف الأمة وأئمتها وجمهور طوائف أهل الكلام على أن الله قادر على ما علم وأخبر أنه لا يكون ، وعلى ما يمتنع صدوره عنه لعدم إرادته ، لا لعدم قدرته عليه ، وإنما خالف فى ذلك طوائف من أهل الضلال من الجهمية والقدرية والمتفلسفة الصابئة الذين يزعمون انحصار المقدور فى الموجود ، ويحصرون قدرته فيما شاءه وعلم وجوده ، دون ما أخبر أنه لا يكون ، كما رجحه النظام[117]

(١١٦) ما بين المعقوفتين إضافة من المحقق .

(١١٧) أبو إسحاق النظام : إبراهيم بن سيار بن هانئ البصرى : من أئمة =

والأسوارى(118) ، وكما يقوله من زعم أنه ليس من المقدور غير هذا العالم ، ولا فى المقدور ما يمكن أن يهدى به الضال ، وقد قال الله تعالى : ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾(119) مع أنه سبحانه لا يسوى بنانه ، وقال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ

= المعتزلة ، متبحر فى علوم الفلسفة وانفرد فيها بآراء خاصة تابعه فيها فرقة من المعتزلة فسموها (النظامية) ، وقد ألفت كتب خاصة فى تكفيره وتضليله والرد عليه ، توفى سنة (٢٣١هـ /٨٤٥م) . [انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد ٦ /٩٧ ، وأمالى المرتضى ١ /١٣٣ ، وخطط المقريزى ١ /٣٤٦ ، والنجوم الزاهرة ٢ /٢٣٤ والأعلام للزركلى ص ١ /٤٣] .

(١١٨) موسى بن سيار الأسوارى : أحد القصاص من أهل البصرة ، له رواية ضعيفة فى الحديث ، قال ابن حبان فى (كتاب المجروحين) (٢ /٢٤٠) : روى عنه عبد الواحد بن واصل منكر الحديث عن عطية ، (فلست أدرى وقع المناكير فى حديثه منه أو من عطية) . وقد ضعفه يحيى القطان ، وقال أبو حاتم : مجهول . وقال ابن معين وغيره : كان قدريًّا . وقال الجاحظ : كان من أعاجيب الدنيا ، فصيحًا بالفارسية كالعربية ، فلا يدرى بأى لسان هو أبين . وفى تحقيق سنة وفاته قال صاحب (الأعلام) : (فيه – أى لسان الميزان) – إنه يروى عطية العوفى المتوفى سنة ١١١ ، وعلى هذا قُدرت وفاته – نحو ١٥٠هـ /٧٦٧م) . [انظر ترجمته فى : المجروحين ٢ /٢٤٠ ، والميزان ٤ /٢٠٦ و٤ /٢٢٧ ، ولسان الميزان : ٦ /١٢٠ ، والبيان والتبين ، تحقيق عبد السلام هارون ١ /٣٦٨ والأعلام للزركلى ص ٧ –٣٢٣] .

(١١٩) الآيتان ٣ و٤ من سورة القيامة .

عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾[120] .

وقد ثبت فى الصحيح عن جابر[121] : « أنه لما نزلت هذه الآية : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ قال النبى ﷺ : أعوذ بوجهك - ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : أعوذ بوجهك ، ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ . قال : « هاتان أهون »[122] . وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾[123] .

ومن حكى من أهل الكلام عن أهل السنة والجماعة أنهم يقولون : إن العبد ليس قادرًا على غير ما فعل الذى هو خلاف المعلوم ، فإنه مخطئ فيما نقله عنهم من نفى القدرة

---

(١٢٠) جزء من الآية ٦٥ من سورة الأنعام .

(١٢١) هو جابر بن عبد الله ، وقد سبقت ترجمته .

(١٢٢) رواه البخارى فى تفسيره للآية ، ورواه أيضًا فى (كتاب التوحيد) ، ورواه النسائى فى التفسير ، ورواه الحميدى فى مسنده ، وابن حبان فى صحيحه ، وابن جرير فى تفسيره - وانظر تفسير ابن كثير للآية ص ٣ /٣٥ .

(١٢٣) جزء من الآية ١٣ من سوزة السجدة .

مطلقًا ، وهومصيب فيما نقله عنهم من نفى القدرة التى اختص بها الفاعل دون التارك ، وهذا من أصول نزاعهم فى جواز تكليف ما لا يطاق .

فإن من يقول : الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل ، فالتارك لا استطاعة له بحال - يقول : إن كل من عصى الله فقد كلفه الله ما لا يطيقه ، كما قد يقولون : إن جميع العباد كلفوا ما لا يطيقون . ومن يقول : إن استطاعة الفعل هى استطاعة الترك - يقول : إن العباد لم يكلفوا إلا ما هم مستوون فى طاقته وقدرته واستطاعته ، لا يختص الفاعل دون التارك باستطاعة خاصة ، فإطلاق القول بأن العبد كلف بما لا يطيقه ، كإطلاق القول بأنه مجبور على أفعاله ؛ إذ سلب القدرة فى المأمور نظير إثبات الجبر فى المحظور - وإطلاق القول بأن العبد قادر مستطيع على خلاف معلوم الله ومقدوره .

وسلف الأمة وأئمتها ينكرون هذه الإطلاقات كلها ، لاسيما كل واحد من طرفى النفى والإثبات على باطل ، وإن كان فيه حق أيضًا ، بل الواجب إطلاق العبارات الحسنة ، وهى المأثورة التى جاءت بها النصوص ، والتفصيل فى

العبارات المجملة المشتبهة ، وكذلك الواجب نظير ذلك فى سائر أبواب أصول الدين أن يجعل ما يثبت بكلام الله عز وجل ورسوله وإجماع سلف الأمة هو النص المحكم ، وتجعل العبارات المحدثة المتقابلة بالنفى والإثبات المشتملة فى كل من الطرفين فى حق وباطل من باب المجمل المشتبه المحتاج إلى تفصيل الممنوع من إطلاق طرفيه .

وقد كتبنا فى غير هذا الموضع ما قاله الأوزاعى[(١٢٤)] ، وسفيان الثورى[(١٢٥)] ، وعبد الرحمن بن مهدى[(١٢٦)] ،

---

(١٢٤) هو أبو عمرو : عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعى ، نسبة إلى قبيلة الأوزاع ، إمام الديار الشامية فى الفقه والزهد ، ولد فى بعلبك سنة (٨٨هـ /٧٠٧م) ونشأ فى البقاع ، ثم سكن بيروت وتوفى فيها سنة (١٥٧هـ /٧٧٤م) ، ويقال إن ما سئل عنه بلغ سبعين ألف مسألة أجاب عنها كلها . [انظر ترجمته فى : الوفيات ١ /٢٧٥ ، وحلية الأولياء ٦ /١٣٥ ، والشذرات ١ /٢٤١ والأعلام للزركلى ص ٣ /٣٢٠] .

(١٢٥) هو أبو عبد الله : سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى ، من بنى ثور بن عبد مناة ، من مضر : من مشاهير علم الحديث حتى لقب بأمير المؤمنين فيه ، كان سيد أهل زمانه فى التقوى والعلم ، ولد بالكوفة (٩٧هـ /٧١٦م) ونشأ فيها ، ومات بالبصرة (١٦١هـ /٧٧٨م) ، وله تصانيف كثيرة منها (الجامع الكبير) و(الجامع الصغير) . [انظر فى ترجمته : طبقات ابن سعد ٦ /٢٥٧ ، وحلية الأولياء ٦ /٣٥٦ ، وتهذيب التهذيب =

وأحمد بن حنبل(١٢٧) ، وغيرهم من الأئمة من كراهة إطلاق الجبر ، ومن منع إطلاق نفيه أيضًا .

وكذلك أيضًا : القول بتكليف ما لا يطاق لم تطلق الأئمة فيه واحدًا من الطرفين . قال أبو بكر عبد العزيز(١٢٨) ، صاحب الخلال(١٢٩) فى (كتاب القدر) الذى فى مقدمة

= ٤ /١١١ –١١٥ ، وتاريخ بغداد ٩ –١٥١ والأعلام للزركلى ص ٣ /١٠٥] .

(١٢٦) هو أبو سعيد (اللؤلئى) : عبد الرحمٰن بن مهدى بن حسان العنبرى البصرى : من كبار حفاظ الحديث فى بغداد ، وله تصانيف ، وولد بالبصرة سنة (١٣٥هـ /٧٥٢م) وتوفى فيها (١٩٨هـ /٨١٤م) . [انظر ترجمته فى : تهذيب التهذيب ٦ /٢٧٩ ، وحلية الأولياء ٩ /٣ ، وتاريخ بغداد ١٠ /٢٤٠ والأعلام للزركلى ٣ /٣٣٩] .

(١٢٧) سبقت ترجمته .

(١٢٨) هو أبو بكر : عبد العزيز بن جعفر بن أحمد بن يزداد بن معروف البغوى : مفسر ، ثقة فى الحديث ، بغدادى من أعيان الحنابلة ، كان تلميذًا لأبى بكر الخلال ، ملقب به (صاحب الخلال) ، له مصنفات كبيرة فى الفقه والتفسير ، عاش ما بين سنة (٢٨٥هـ /٨٩٨م) وسنة (٣٦٣هـ /٩٧٤م) . [انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة ٢ /١١٩ –١٢٧ ، والبداية والنهاية ١١ /٢٧٨ ، وتاريخ بغداد ١٠ /٤٥٩ والأعلام للزركلى ص ٤ /١٥] .

(١٢٩) هو أبو بكر الخلال : أحمد بن محمد بن هارون : مفسر عالم بالحديث =

(كتاب المقنع) له : لم يبلغنا عن أبى عبد الله[١٣٠] فى هذه المسألة قول فنتبعه ، والناس فيه قد اختلفوا ، فقال قائلون : بتكليف ما لا يطاق ونفاه آخرون ومنعوا منه . قال : والذى عندنا فيه أن القرآن شهد بصحة ما إليه قصدنا ، وهو أن الله عز وجل ، يتعبد خلقه بما يطيقون وما لا يطيقون . ثم قال فى آخر الفصل : ولعل قائلًا أن يعارض قولنا فيقول : لو جاز أن يكلف الله العبد ما لا يطيق جاز أن يكلف الأعمى صنعة الألوان والمقعد المشى ، ومن لا يد له البطش ، وما أشبه ذلك ، فيقال له : قد قال ابن عباس :[١٣١] فى قوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾[١٣٢] هو مشيهم على وجوههم ، وسقط السؤال فى كل ما سألوا عنه على جواب ابن عباس فى المشى على الوجوه .

= واللغة ، وهو من كبار الحنابلة من أهل بغداد ، جامع علم أحمد بن حنبل ومرتبه ، صاحب التصانيف العديدة ، توفى سنة (٣١١هـ /٩٢٣م) . [انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة ٢ /١٢ ، والبداية والنهاية ١١ /١٤٨ ، وتذكرة الحفاظ ٣ /٧ ، ومناقب الإمام أحمد ٥١٢ والأعلام للزركلى ص ١ /٢٠٦] .

(١٣٠) هو أبو عبد الله أحمد بن حنبل وقد سبقت ترجمته .

(١٣١) سبقت ترجمته .

(١٣٢) جزء من الآية ٩٧ من سورة الإسراء .

ثم قال : وقد أبان أبو الحسن – يعنى الأشعرى –[١٣٣] فيما قدمنا ذكره عنه فى هذه المعانى بما فيه كفاية ، قال القاضى أبو يعلى :[١٣٤] لما حكى كلام أبى الحسن – يعنى أبا الحسن الأشعرى – قد فصل بين ما يقدر على فعله لا لاستحالته فيجوز تكليفه ، وما يستحيل لا يجوز ، قال : وظاهر كلام أبى الحسن الأشعرى الاحتمال فيما يستحيل وجوده ، هل يصح تكليفه أم لا ؟ قال : والصحيح ما ذكرناه من التفصيل ، وهو أن ما لا يقدر على فعله لاستحالته

---

(١٣٣) هو أبو الحسن على بن إسماعيل بن إسحاق (الأشعرى) : مؤسس مذهب الأشاعرة ، من أئمة المتكلمين المجتهدين كان معتزليًا ثم خالف المعتزلة وجاهر بخلافهم . ولد بالبصرة (٢٦٠هـ /٨٧٤م) وتوفى ببغداد (٣٢٤هـ /٩٣٦م) . [انظر ترجمته فى : طبقات الشافعية ٢ /٢٤٥ ، والمقريزى ٢ /٣٥٩ ، وابن خلكان ١ /٣٢٦ ، والبداية والنهاية ١١ /١٨٧ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٢ /٢١٨ والأعلام للزركلى ص ٤ /٢٦٣] .

(١٣٤) أبو يعلى القاضى : محمد بن الحسين بن محمد بن خلف (بن الفراء) : من أهل بغداد ، عالم حنبلى بلغ القمة فى عصره فى علوم الأصول والفروع ، وصاحب التصانيف العديدة ، منها (الأحكام السلطانية) و(المجرد) فى الفقه على مذهب الإمام أحمد . تولى قضاء بغداد ، وعاش فيما بين (٣٨٠ هـ /٩٩٠م) و(٤٥٨ هـ /١٠٦٦م) . [انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ٢ /١٩٣ –٢٣٠ ، وتاريخ بغداد ٢ /٢٥٦ ، شذرات الذهب ٣ /٣٠٦ والأعلام للزركلى ص ٦ /٩٩] .

كالأمر بالمحال ، وكالجمع بين الضدين وجعل المحدث قديمًا ، والقديم محدثًا ، أو كان مما لا يقدر عليه للعجز عنه ، كالمُقْعَد والأخرس الذى لا يقدر على الكلام ، فهذا الوجه لا يجوز تكليفه .

(**والوجه الثانى**) : ما لا يقدر على فعله لا لاستحالته ولا للعجز عنه ، لكن لتركه والاشتغال بضده ، كالكافر كلفه الإيمان فى حال كفره ؛ لأنه غير عاجز عنه ولا مستحيل منه ، فهو كالذى لا يقدر على العلم لاشتغاله بالمعيشية ، فهذا الذى ذكره القاضى أبو يعلى هو قول جمهور الناس من الفقهاء والمتكلمين ، وهو قول جمهور أصحاب الإمام أحمد ، وذكر القاضى النصوص عن الأشعرى فيما ذكره القاضى عنه — وقد ذكر أن أبا بكر عبد العزيز ، ذكر كلام أبى الحسن فى ذلك كما يذكر المصنف كلام أبى الحسن فى ذلك ، وكما يذكر المصنف كلام موافقيه وأصحابه ؛ لأنه كان من جملة المتكلمين المنتسبين إلى الإمام أحمد وسائر أئمة السُّنة ، كما ذكر ذلك فى كتبه .

وأما أتباع أبى الحسن ، فمنهم من وافق نفس الذى ذكره القاضى ، كأبى على بن شاذان[١٣٥] .

(١٣٥) هو أبو على الواسطى : الحسن بن خلف بن شاذان ، روى عن =

وأتباعه ، ومنهم من خالفه كأبى محمد اللبان ،(١٣٦) والرازى(١٣٧) ، وطوائف قالوا : إنه يجوز تكليف الممتنع ، كالجمع بين الضدين ، والمعجوز عنه .

و(**القول الثالث**) : الذى ذكره أبو بكر عبد العزيز ، وهو أنه يجوز تكليف كل ما يمكن ، وإن كان ممتنعًا فى

= إسحاق الأزرق ، ويزيد بن هارون ، وغيرهما ، وروى عنه البخارى فى صحيحه . توفى سنة (٣٤٦هـ) ، [انظر ابن كثير فى (البداية والنهاية) (١١ /٢٤٧)] .

(١٣٦) هو أبو محمد : عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن البكرى الوائلى ، المعروف بابن اللبان ، فقيه شافعى من أهل أصبهان ، حدث ببغداد ، وتوفى بأصبهان سنة (٤٤٦هـ /١٠٥٤م) ، قال ابن عساكر : له كتب كثيرة مصنفة . [انظر فى ترجمته : طبقات السبكى ٣ /٢٠٧ ، وتبيين كذب المفترى ٢٦١ والأعلام للزركلى ص ٤ /١٢١] .

(١٣٧) هو أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى : محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمى البكرى ، أوحد زمانه فى التفسير والفقه والمعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، قرشى النسب ، ولد فى الرى (٥٤٤هـ /١١٥٠م) وأصله من طبرستان ، من تصانيفه (مفاتيح الغيب) فى التفسير (٨ مجلدات) و(معالم أصول الدين) وغيرها كثير جدا ، وتوفى رحمه الله فى هراة (٦٠٦هـ /١٢١٠م) . [انظر ترجمته فى : طبقات الأطباء ٢ /٢٣ ، والوفيات ١ /٤٧٤ ، ولسان الميزان ٤ /٤٢٦ والأعلام للزركلى ص ٦ /٣١٣] .

العادة ، كالمشى على الوجوه ، ونقط الأعمى المصحف .

وذكر أبو عبد الله بن حامد[١٣٨] ، شيخ القاضى أبى يعلى فى أصوله ؛ قولى التفريق والإطلاق عن أصحاب أحمد فقال :

(فصل)

لأنه ما وجد فى الأمر ، ولو وجد بالفكر ، وهذا مثل ما لم ترد الشريعة به ، كأمر الأطفال ومن لا عقل له والأعمى البصر ، والفقير النفقة ، والزَّمِن[١٣٩] أن يسير إلى مكة ، فكل ذلك ما جاءت به الشريعة ، ولو جاءت به لزم الإيمان به والتصديق فلا يقيد الكلام فيه . قال : وذهبت طائفة من أصحابنا إلى إطلاق الاسم من جواز تكليف ما لا يطاق من زَمِنٍ وأعمى وغيرهم ، وهو مذهب جهم[١٤٠]

---

(١٣٨) هو أبو عبد الله : الحسن بن حامد بن على بن مروان البغدادى : إمام الحنابلة فى زمانه ومدرسهم وفقيهم ، له مصنفات كثيرة فى الفقه وغيره ، وتوفى راجعًا من الحج بقرب (واقصة) سنة (٤٠٣هـ /١٠١٢م) . [انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة ٢ /١٧١ –١٧٧ والأعلام للزركلى ص٢ /١٨٧] .

(١٣٩) الزَّمِنُ : المريض صاحب المرض المزمن الذى لا يرجى شفاؤه .

(١٤٠) هو أبو محمد : جهم بن صفوان السمرقندى ، من موالى بنى راسب ، =

وبرغوث[١٤١] .

و(**الوجه الثانى**) : سلامة الآلة ، لكن عدم الطاقة لعدم التوفيق والقبول ، وذلك يجوز وجهًا واحدًا فى معنى هذا أنه يجوز التكليف لمن قدر علم الله فيه أنه لا يفعله ، وأبى ذلك المعتزلة ، والدليل عليه قوله لإبليس : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾[١٤٢] ، وقوله : ﴿ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ

= وإليه تنسب فرقة (الجهمية) أو (الجبرية) التى ترى أن الإنسان مجبر على أفعاله ، مُسَيَّرٌ لا مخير ، وتنفى الصفات . قال الذهبى : الضال المبدع ، هلك فى زمان صغار التابعين ، وقد زرع شرًّا عظيمًا . استعمله الحارث بن سريج الخارج على أمراء خراسان الأمويين ، فظفر به نصر بن يسار وقتله بمرو على شط نهر بلخ سنة (١٢٨هـ / ٧٤٥م) . (انظر ترجمته فى : ميزان الاعتدال ١ /١٩٧ ، والكامل لابن الأثير (حوادث سنة ١٢٨هـ) ، ولسان الميزان ٢ /١٤٢ ، والأعلام للزركلى ص٢ /١٤١] .

(١٤١) أبو عيسى : محمد بن عيسى برغوث ، تلميذ حسين بن محمد النجار ، قال عنه ابن تيمية فى (مجموع الفتاوى) ١٧ /٢٢٩ : كان ممن احتج على أن القرآن مخلوق بنفى التجسيم ، وهو من أكابر المتكلمين (الذين جمعهم أبو داود للإمام أحمد لمناظرته فى مسألة خلق القرآن ، وإن لم يكن معتزلًا) . وقال فى موضع آخر من (المجموع) ٥ /١٩٤ : وهو - أى برغوث - من أئمة أهل النظر والكلام الذين ناظروا الفلاسفة خير المناظرة ، كأبى عبد الله محمد بن كرام ، وابن كلاب ، وجعفر بن مبشر ، وأبى إسحاق النظام . . . وغيرهم .

(١٤٢) جزء من الآية ٧٥ من سورة ص .

أَمَرْتُكَ﴾[143] الآيات : فأمر وقد سبق من علمه أنه لا يقع منه فعله ، فكان الأمر متوجهًا إلى ما قد سبق من علم الله أنه لا يطيقه .

(**القول الثانى**) : منقول عن أبى الحسن[144] أيضًا ، . وزعم أبو المعالى الجوينى[145] أنه الذى مال إليه أكثر أجوبة أبى الحسن ، وأنه الذى ارتضاه كثير من أصحابه ، وقد توقف أبو الحسن عن الجواب فى الموجز ، وكان أبو المعالى يختاره أوَّلا ، ثم رجع عنه وقطع أن تكليف ما لا يطاق محال ، وهذا القول الأول قول ابن عقيل[146] ، وأبى الفرج بن

(١٤٣) جزء من الآية ١٢ من سورة الأعراف .

(١٤٤) هو أبو الحسن الأشعرى ، وقد سبقت ترجمته .

(١٤٥) هو أبو المعالى : عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجوينى، من أصحاب الشافعى ، الملقب بإمام الحرمين ، ولد فى جوين سنة (٤١٩هـ / ١٠٢٨هـ) ناحية نيسابور ، ورحل إلى بغداد ، ثم مكة ، ثم المدينة ، ثم عاد إلى نيسابور حيث حضر دروسه العلماء ، وله مصنفات كثيرة ، وتوفى بنيسابور سنة (٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) . [انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ١ /٢٨٧ ، والسبكى ٣ /٢٤٩ والأعلام للزركلى ٤ /١٦٠] .

(١٤٦) هو أبو الوفاء : على بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادى الظفرى (٤٣١هـ /١٠٤٠م) – (٥١٣هـ /١١١٩م) ، عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد فى عصره ، صاحب التصانيف العديدة ، منها (كتاب الفنون) الذى =

الجوزى[١٤٧] ، وأبى عبد الله الرازى[١٤٨] وغيره ، وهذا (الثانى) هو مذهب أبى إسحاق الإسفرائينى[١٤٩] ، وأبى بكر بن فورك[١٥٠] ، وأبى القاسم الأشعرى[١٥١] ،

= قال الذهبى عنه فى تاريخه : كتاب الفنون لم يصنف فى الدنيا أكبر منه ، وله (الفصول) فى فقه الحنابلة ، عشرة مجلدات . (انظر ترجمته فى : شذرات الذهب ٤ /٣٥ ، ولسان الميزان ٤ /٢٤٣ ، وطبقات الحنابلة ٤١٣ ، ومناقب الإمام أحمد ٢٥٦ والأعلام للزركلى ٤ /٣١٣] .

(١٤٧) هو أبو الفرج : عبد الرحمٰن بن على بن محمد الجوزى القرشى البغدادى (٥٠٨هـ /١١١٤م) – (٥٩٧هـ /١٢٠١م) عَلَّامة عصره فى التاريخ والحديث ، مولده ووفاته ببغداد ، له ما يقرب من ثلاثمائة مصنف ، منها (تلبيس إبليس) و(روح الأرواح) و(مناقب عمر بن عمر العزيز) وغيرها . (انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ /٢٧٩ ، والبداية والنهاية ١٣ /٢٨ والأعلام للزركلى ص٣ /٣١٧] .

(١٤٨) سبقت ترجمته قريبًا .

(١٤٩) هو أبو إسحاق : إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران : ركن الدين ، العالم بالفقه والأصول ، يقال إنه أول من لقب من الفقهاء . . له كتب عديدة منها (الجامع) فى أصول الدين ، وكان ثقة فى رواية الحديث ، مات فى نيسابور (٤١٨هـ /١٠٢٧م) ودفن فى موطنه إسفرايين (بين نيسابور وجرجان) . (انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ١ /٤ ، وشذرات الذهب ٣ /٢٠٩ ، وطبقات السبكى ٣ /١١١ والأعلام للزركلى ص ١ /٦١] .

(١٥٠) هو أبو بكر : محمد بن الحسن بن فورك الأنصارى الأصبهانى : من فقهاء الشافعية ، ومن العلماء الوعاظ ، حدث فى نيسابور ، وتوفى على مقربة

والغزالى[١٥٢] ، وَادَّعَى أبو إسحاق الإسفرائينى أنه مذهب شيخه أبى الحسن[١٥٣] وأنه مذهب أهل الحق ، فأما القاضى أبو بكر [١٥٤] فقد قال بجوازه فى بعض كتبه ، وأكثر كلامه على التفريق بين تكليف العاجز ، وبين تكليف القادر على الترك ، كما هو قول الجمهور .

= منها (٤٠٦هـ /١٠١٥م) ، بلغت تصانيفه فى أصول الدين وأصول الفقه ومعانى القرآن قريبًا من المائة . [انظر ترجمته فى الطبقات الكبرى للسبكى ٣ /٥٢،٥٦ ، ووفيات الأعيان ١ /٤٨٢ والآعلام للزركلى ص ٦ /٨٣] .

(١٥١) نرجح أن المقصود هنا هو أبو الحسن الأشعرى ، وأن ثمة خطأً قد وقع فى النقل ، فأبو الحسن هو الأنسب لهذا السياق ، ولم أجد فى الأشعريين من يُكْنَى بأبى القاسم .

(١٥٢) هو أبو حامد الغزالى : محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى . . من طوس بخراسان ، فيلسوف متصوف ، لقبوه بحجة الإسلام ، تقرب مصنفاته من المائتين عددًا ، ومن أشهرها (إحياء علوم الدين) ، و(تهافت الفلاسفة) ، و(المنقذ من الضلال) وغيرها كثير . . ولد رحمه الله بطوس (٤٥٠هـ /١٠٥٨) ومات فيها (٥٠٥هـ /١١١١م) . [انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ١ /٤٦٣ ، وطبقات الشافعية ٤ /١٠١ ، وشذرات الذهب ٤ /١٠ والأعلام للزركلى ص ٧ /٢٢] .

(١٥٣) هو أبو الحسن الأشعرى ؛ وقد سبقت ترجمته .

(١٥٤) هو أبو بكر الخلال ، وقد سبقت ترجمته .

وفى المسألة (قول ثالث) : وهو الذى ذكره أبو بكر عبد العزيز[١٥٥] أنه يجوز تكليف كل ما يمكن وإن كان ممتنعًا فى العادة – كالمشى على الوجه ، ونقط الأعمى المصحف – دون الممتنع – كالجمع بين الضدين .

وفصل الخطاب فى (هذه المسألة) أن النزاع فيها فى أصلين :

أحدهما : التكليف الواقع الذى اتفق المسلمون على وقوعه فى الشريعة ، وهو أمر العباد كلهم بما أمرهم الله به ورسوله من الإيمان به وتقواه ، هل يسمى هذا أو شىء منه تكليف ما لا يطاق ؟ فمن قال : بأن القدرة لا تكون إلا مع الفعل يقول : إن العاصى كُلف ما لا يطيقه ، ويقول : إن كل أحد كلف حين كان غير مطيق ، وكذلك من زعم أن تقدم العلم والكتاب بالشىء يمنع أن يقدر على خلافه ، قال : إن كلف خلاف المعلوم فقد كلف ما لا يطيقه ، وكذلك من يقول : إن العرض لا يبقى زمانين ، يقول : إن الاستطاعة المتقدمة لا تبقى إلى حين الفعل .

(١٥٥) سبقت ترجمته .

وهذا فى الحقيقة ليس نزاعًا فى الأفعال التى أمر الله بها ونهى عنها ، هل يتناولها التكليف ؟ وإنما هو نزاع فى كونها غير مقدورة للعبد التارك لها ، وغير مقدورة قبل فعلها ، وقد قدمنا أن القدرة نوعان ، وأن من أطلق القول بأن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل فإطلاقه مخالف لما ورد فى الكتاب والسنة ، وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها - كإطلاق القول بالجبر - وإن كان قد أطلق ذلك طوائف من المنتسبين إلى السنة فى ردهم على القدرية من المنتسبين إلى الإمام أحمد (١٥٦) وغيره من أئمة السنة : كأبى الحسن (١٥٦) ، وأبى بكر عبد العزيز(١٥٦) ، وأبى عبد الله بن حامد(١٥٦) ، والقاضى أبى بكر(١٥٦) ، والقاضى أبى يعلى(١٥٦) ، وأبى المعالى(١٥٦) ، وأبى الحسن بن الزاغونى(١٥٧) ، وغيرهم ، فقد منع من هذا الإطلاق جمهور أهل العلم كأبى العباس بن

---

١٥٦) سبقت ترجمته .

(١٥٧) هو أبو الحسن : على بن عبيد الله بن نصر بن السرى : الفقيه المؤرخ ، من أعيان الحنابلة فى بغداد ، كثرت تصانيفه فى شتى علوم الأصول والفروع والحديث والوعظ ، عاش ما بين (٤٥٥هـ /١٠٦٣م) و(٥٢٧هـ /١١٣٢م) . [انظر ترجمته فى : شذرات الذهب ٤ /٨٠ ، والذيل على طبقات الحنابلة ١ /٢١٦ والأعلام للزركلى ٤ /٣١٠] .

سريج[١٥٨] ، وأبى العباس القلانسى[١٥٩] ، وغيرهما ، ونقل ذلك عن أبى حنيفة[١٦٠] نفسه ، وهو مقتضى قول جميع الأمة .

---

(١٥٨) هو أبو العباس : أحمد بن عمر بن سريج البغدادى · من أعيان فقهاء الشافعية ، ولد ببغداد سنة (٢٤٩هـ /٨٦٣م) وتوفى سنة (٣٠٦هـ /٩١٨م) ، وله تصانيف كثيرة جدًّا ، نحو أربعمائة مصنف . [انظر ترجمته فى : طبقات الشافعية للسبكى ٢ /٨٧ ، والبداية والنهاية ١١ /١٢٩ ، ووفيات الأعيان ١ /١٧ والأعلام للزركلى ص ١ /١٨٥] .

(١٥٩) هو أبو العباس القلانسى ، قال عنه ابن تيمية فى « مجموع الفتاوى » ص ٥ /٥٥٧ : من النظّار الذينْ فهموا أصل قول المتكلمين وعلموا ثبوت الصفات لله ، وأنكروا القول بأن كلامه مخلوق ، وفرحوا بالطريقة التى سلكها ابن كلاب – (يقصد أبا محمد القطان : عبد الله بن سعيد المتوفى سنة ٢٤٥هـ /٨٦٠م) – ومثله فى ذلك مثل أبى الحسن الأشعرى ، وأبى عبد الله بن مجاهد .

(١٦٠) هو أبو حيفة : النعمان بن ثابت ، التيمى بالولاء ، الكوفى : الفقيه المجتهد المحقق ، إمام الحنفية ، ولد بالكوفة (٨٠هـ /٦٩٩م) ونشأ بها ، ولما اشتهر فى التدريس والإفتاء قصده أمير العراقين عمر بن هبيرة لتولى القصاء فأبى ورعًا ، ودعاه المنصور العباس إلى قضاء بغداد فامتنع ، فحلف أن يفعل فحلف أبو حنيفة أنه لا يفعل ، فحبسه المنصور حتى مات ببغداد (١٥٠هـ /٧٦٧م) . [انظر ترجمته فى : تاريخ بعداد ١٣ /٣٢٣ – ٤٢٣ ، وابن خلكان ٢ /١٦٣ ، والنجوم الزاهرة ٢ /١٢ ، والبداية والنهاية ١٠ /١٠٧ والأعلام للزركلى ص٨ /٣٦] .

ولهذا امتنع إسحاق بن شاقلا(١٦١) من إطلاق ذلك ، وحكى فيه القولين : فقال – فيما ذكره عنه القاضى أبو يعلى – : الاستطاعة مع الفعل أو قبله ؟ حجة من قال : إن الصلاة والحج والجهاد لا يجوز أن يأمر به غير مستطيع ، وحجة من قال أن الفعل خلق من خلق الله عز وجل ، فإذا خلق فيه فعلًا فعله .

وهذا كما أن من قال : إنه ليس للعبد إلا قدرة واحدة يقدر بها على الفعل والترك ، وأنه مستغنٍ فى حال الفعل عن معونة من الله تعالى يفعل بها ، وسوَّى بين نعمته على المؤمن والكافر والبر والفاجر ، فهو مبطل ، وهم القدرية الذين حاد منهم فى الأيام المشهورة ، حيث كان قولهم إن العبد لا يفتقر إلى الله تعالى حال الفعل بالبر عما وجد قبل الفعل(١٦٢) ، وأنه ليس

(١٦١) أبو إسحاق : إبراهيم بن أحمد البغدادى البزار ، شيخ الحنابلة ، وتلميذ أبى بكر عبد العزيز ، توفى كهلًا فى رجب (من سنة ٣٦٩هـ) ، وكان صاحب حلقة للفتيا بجامع المنصور . [انظر ترجمته فى : (العبر فى خبر من غبر) ٢ /١٣١ ، و(سير أعلام النبلاء) ١٦ /٢٩٢ ، (وتاريخ بغداد) ٢ /١٢٨ – ١٣٩ ، و(شذرات الذهب) ٣ /٦٨ ، و(طبقات الشيرازى) ١٧٣] .

(١٦٢) موضع إشارة من المحقق يقول فيها : كذا بالأصل .

لله تعالى نعمة أنعم بها على من آمن به وأطاعه أكبر من نعمته على من كفر به وعصاه ، فهذا القول خطأ قطعًا؛ ولهذا اتفق أهل السنة والجماعة على تضليل صاحب هذا القول .

ثم النزاع بينهم بعد ذلك فى هذه الأمور كثير منه لفظى ، ومنه ما هو اعتبارى ، كتنازعهم فى أن العرض هل يبقى أم لا يبقى ، وبنوا على ذلك بقاء الاستطاعة ، ولكن أحسن الألفاظ والاعتبارات ما يطابق الكتاب والسنة ، واتفاق سلف الأمة وأئمتها الواجب أن يجعل نصوص الكتاب والسنة هى الأصل المعتمد الذى يجب اتباعه ويسوغ إطلاقه ، ويجعل الألفاظ حتى تنازع فيها الناس نفيًا أو إثباتًا موقوفة على الاستفسار والتفصيل ، ويمنع من إطلاق نفى ما أثبته الله ورسوله ، وإطلاق إثبات ما نفى الله ورسوله .

و(**الأصل الثانى**) فيما اتفق الناس على أنه غير مقدور للعبد ، وتنازعوا فى جواز تكليفه . وهو (نوعان) : ما هو ممتنع عادة كالمشى على الوجه والطيران ونحو ذلك ، وما هو ممتنع فى نفسه كالجمع بين الضدين ، فهذا فى جوازه عقلًا ثلاثة أقوال كما تقدم . وأما وقوعه فى الشريعة وجوازه شرعًا فقد اتفق حملة الشريعة على أن مثل هذا ليس بواقع فى

الشريعة ، وقد حكى انعقاد الإجماع على ذلك غير واحد ، منهم أبو الحسين بن الزاغوانى فقال :

(فصل)

تكليف ما لا يطاق وهو على ضربين :

(**أحدهما**) : تكليف ما لا يُطاق لوجود ضده من العجز ، وذلك مثل أن يكلف المُقْعَد القيام ، والأعمى الخط ونقط الكتاب ، وأمثال ذلك ، فهذا مما لا يجوز تكليفه ، وهو مما انعقد الإجماع عليه ، وذلك لأن عدم الطاقة فيه ملحقة بالممتنع والمستحيل ، وذلك يوجب خروجه عن المقدور فامتنع تكليفه مثله .

و(**الثانى**) : تكليف ما لا يطاق لا لوجود ضده من العجز مثل أن يكلف الكافر الذى سبق فى علمه أنه لا يستحب التكليف ، كفرعون وأبى جهل[١٦٣] وأمثالهم ، فهذا جائز ، وذهبت المعتزلة إلى أن تكليف ما لا يُطاق غير جائز ، قال : وهذه المسألة كالأصل لهذه .

---

(١٦٣) هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشي ، أحد سادات قريش =

قلت : وهذا الإجماع هو إجماع الفقهاء وأهل العلم ، فإنه قد ذهبت طائفة من أهل الكلام إلى أن تكليف الممتنع لذاته واقع فى الشريعة ، وهذا قول الرازى[١٦٤] وطائفة قبله ، وزعموا أن تكليف أبى لهب[١٦٥] وغيره من هذا الباب ، حيث كلف أن يصدق بالأخبار التى من جملتها الإخبار بأنه لا يؤمن ، وهذا غلط ، فإنه من أخبر الله أنه لا يؤمن وأنه يَصْلَى

= ودهاتها فى الجاهلية ، وأشد الناس عداوة للنبى ﷺ فى صدر الإسلام ، كان يقال له (أبو الحكم) فدعاه المسلمون (أبو جهل) ، شهد بدرًا مع المشركين فكان من قتلاها سنة (٢هـ /٦٢٤م) . [انظر ترجمته فى : ابن الأثير ١ /٢٣ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٣٢ و٣٣ و٣٨ و٤٠ و٤٥ و٤٦ و٤٧ ، وعيون الأخبار ١ /٢٣٠ ، والسيرة الحلبية ٢ /٣٣ ، ودائرة المعارف الإسلامية ١ /٣٢٢ ، وإمتاع الأسماع ١ /١٨ والأعلام للزركلى ص ٥ /٨٧] .

(١٦٤) سبقت ترجمته .

(١٦٥) هو أبو لهب : عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم القرشى ، عم رسول الله ، ﷺ ، منعه الكبر من اتباع ابن أخيه ، وكان غنيًّا عتيًا ، أحمر الوجه مشرقًا ، فلقب بأبى لهب فى الجاهلية ، وكان من أشد الناس عداوة وكيدًا للمسلمين ، فنزل فيه ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب** ﴾ مات بعد وقعة بدر بأيام (٢هـ /٦٢٤م) ولم يشهدها . [انظر ترجمته فى : ابن الأثير ٢ /٢٥ ، وتاريخ الإسلام للذهبى ١ /٨٤ و١٦٩ ، والروض الأنف ١ /٢٦٥ و٢ /٧٨ و٧٩ ، وإمتاع الأسماع ١ /٢٢ والأعلام للزركلى ص٤ /١٢] .

النار بعد دعاء النبى ﷺ له إلى الإيمان فقد حقت عليه كلمة العذاب : كالذى يعاين الملائكة وقت الموت ، لم يبق بعد هذا مخاطبًا من جهة الرسول بهذين الأمرين المتناقضين .

وكذلك من قال إن تكليف العاجز واقع محتجًا بقوله : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾(١٦٦) فإنه يناقض هذا الإجماع ، ومضمون الإجماع نفى وقوع ذلك فى الشريعة ، و(أيضًا) فإن مثل هذا الخطاب إنماهو خطاب تعجيز على وجه العقوبة لهم لتركهم السجود وهم سالمون ، يعاقبون على ترك العبادة فى حال قدرتهم بأن أمروا بها حال عجزهم على سبيل العقوبة لهم ، وخطاب العقوبة والجزاء من جنس خطاب التكوين ، لا يشترط فيه قدرة المخاطب ؛ إذ ليس المطلوب فعله ، وإذا تبينت الأنواع والأقسام زال الاشتباه والإبهام .

* * *

---

(١٦٦) الآية ٤٢ من سورة القلم .



فهرس الأحاديث

(أ)

(ب)

(ص)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)



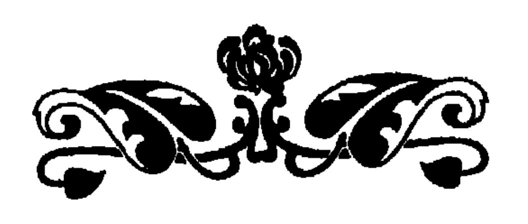




فهرس تراجم الأعلام

(أ)

* * *



فهرس الكتـاب

* * *



رقم الإيداع

٩٢ /٧٨٣٩

I.S.B.N

977-270-019-0



تجهيزات أوفست

جهاد

٢٢ج شارع سيناء ـ الزيتون ـ القاهرة



هـذا الكتاب

« وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً » (صدق الله العظيم)

بهذا التعبير البالغ الإيجاز والقوة أخبرنا العليم الخبير بصفة من صفات البشر ، صفة نعيد اكتشافها كل يوم فى شتى المسائل التى نقابلها ونتناقش من حولها ، إلا ما عصم ربى ..

ومن أكثر القضايا إثارة للجدال والمحاجاة قضية الاحتجاج بالقضاء والقَدَر ، يقولون : إذا كان الله قد كتب علينا اقتراف المعاصى ، فَلِمَ يعذبنا بذنوبنا ، ولم يدخلنا النار ؟ وإذا كنا من أهل النار – فى سابق علم الله – فلن تفيدنا الطاعة ، وإذا كنا من أهل الجنة – قدرًا – فلن تضرنا المعصية .. إذَنْ فلنفعل ما نشاء كيفما نريد ..

ولا تجد مثل هذه الأقوال الفاسدة إلا على أفواه العُصاة وأهل الذنوب ، الذين كان لشيخ الإسلام – أحمد بن تيمية – اليد الطولى فى الرد عليهم وتفنيد آرائهم ، بالقول السديد الرشيد ، وبأسلوبه الرائق البليغ .

وهذا الكتاب سِفْرٌ صغيرُ الحجم ، كبير الفائدة ، بليغ المعانى ، يتضمن رد شيخ الإسلام – بالحجة الدامغة والبرهان الساطع – على سؤالين مُهِمَّين من أسئلة المحتجين بالقضاء والقدر .

نسأل الله تعالى أن ينفع به ، وأن يجعله سبيلاً لإنارة سبيل التائهين الحائرين ، الباحثين فى هذه المسألة عن الحق اليقين .

الناشــــر

